

السنة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الخامس

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
واللطوب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المسائل

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
ستة عشر أعداد

صاحب الرضا
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع النيل
بالروضة بالقاهرة

٢٧ مارس سنة ١٩٥٢

غرة رجب سنة ١٣٧١

هَذَا الْقُرْآنُ

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

عزل الله :

نحن في حاجة في هذا الزمان ، وفي كل زمان ، إلى أن نرجع إلى الله سبحانه وتعالى ونذكر ما أوصانا به من خير ، فنستزيد منه ، وما نهانا عنه من شر فتجنبه . ولقد غشيت هذه الأمة غواشي الظلم ، وانسدل عليها من محنة وأرزائه ما يجعلنا نستروح نسائم العدل الإلهي في كتاب الله ، وكيف يكون ، لعل الله يريح نفوسنا ؛ فلزم طريقه ونعدل عن طريق الفتنة ، ولا تنادي في اتباع الهوى ؛ فقد أضلنا عن سبيل الله .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ » .

فعدل الله كامل شامل ، لا يختص به فريقاً دون فريق ؛ هو عدل يشمل الناس

السنة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدد الخامس

الاشتراكات

١٠٠ عن سنة كاملة
٦٠ عن نصف سنة
واللطوب
٨٠ عن سنة كاملة
٤٠ عن نصف سنة
٢٥ عن ثلاثة أعداد
يضاف إليها أجرة
البريد خارج القطر

المُسْلِمُونَ

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز

ورئيس التحرير

سعيد رمضان

الإدارة:

٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

٢٧ مارس سنة ١٩٥٢

غرة رجب سنة ١٣٧١

هَذَا الْقُرْآنُ

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للأخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

عدل الله :

نحن في حاجة في هذا الزمان ، وفي كل زمان ، إلى أن نرجع إلى الله سبحانه
وتعالى وتذكر ما أوصانا به من خير ، فنستزيد منه ، وما نهانا عنه من شر فنتجنبه .
ولقد غشيت هذه الأمة غواشي الظلم ، وانسدل عليها من محنة وأرزائه ما يجعلنا نستروح
نسائم العدل الإلهي في كتاب الله ، وكيف يكون ، لعل الله يريح نفوسنا ؛ فلنزم طريقه
ونعدل عن طريق الفتنة ، ولا تنادى في اتباع الهوى ؛ فقد أضلنا عن سبيل الله .

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ

عَنْ سَبِيلِهِ » .

فعدل الله كامل شامل ، لا يختص به فريقاً دون فريق ؛ هو عدل يشمل الناس

جميعاً : غنيهم وفقيرهم ، قريبهم وبعيدهم ، عدوهم وصدقهم ، مسلمهم وغير مسلمهم .
وقد جعل الله تعالى المرجع في ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله حتى لا تكون فتنة وحتى
لا يتبع الناس أهواءهم في سن قوانين يزعمون أن من اتبعها ومن حكم بها فقد عدل ،
ومن لم يحكم بها فقد جاوز العدل .

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ
مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

فطاعة الله واجبة ، وطاعة رسوله واجبة ، وطاعة أولى الأمر واجبة ما التزموا
كتاب الله وسنة رسوله . فإن اختلفنا وجب أن نرد أمورنا إلى الله ورسوله ، ولا شك
أننا نجد فيهما الحكم المراد : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . « وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ — الْفَاسِقُونَ — الْكَافِرُونَ » .

فهذا هو القانون الذي يرجع إليه العادل في عدله ، ومهما التمس العدل في غيره
فهو ظالم أو فاسق أو كافر . وإن يقبل الله من أحد أن يرجع إلى غيره وغير رسوله
عند التنازع .

وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

وقد يحكم الإنسان بحكم الله ، ولكن الهوى يدخل على قلبه ، فيؤثر قريباً أو يحايي
صديقاً ، ويظلم بعيداً أو عدواً أو ذمياً ؛ فلا يكون متبعاً لأمر الله إلا في ظاهر الأمر
دون حقيقته ، ويكون عمله من التدليس الذي إن خفي على الناس فلا يخفى على الله الذي
يعلم السر والنجوى ؛ لذلك كان تحذير الله من مثل ذلك شديداً ، تنقل فيه عز وجل من
الأمر بالعدل بصفة عامة إلى التحذير من أسباب الميل التي قد تسوغها الأهواء للنفس
الضعيفة التي لا تخلطها بشاشة الإيمان الصادق .

قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ
بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

فهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام ، ويدخل فيه جميع الخلق ؛ ففي الحديث :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عنه ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وقال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

وفي النهي عن محاباة الأقارب يقول الله عز من قائل : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا » .

ويقول في النهي عن ظلم الأعداء : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

ومن أروع الآيات التي نزلت في تحقيق العدالة ما نزل في قصة ابن أبيرق يكشف للرسول عليه السلام عن حقيقة الأمر فيها وما دبره الخائنون لصرفه عن الحق حتى كادوا يوقعونه في ظلم برىء لم يستحق إثمًا ، ويسمهم بما هم أهله .

سرق ابن أبيرق درعاً لجار له ، فأمر رسول الله عليه السلام بقطع يده ، فقر ، وجاء أهله إلى الرسول وزعموا له أنه لم يسرق الدرع وإنما الذي سرقها هو فلان اليهودي ، وما زالوا به حتى مال إلى قولهم ؛ فأنزل الله هذه الآيات التي تعتبر دستوراً لأعظم نوع من العدل الصرف ، العدل الذي يشمل الإنسانية كلها ، العدل الخالص البرىء من الهوى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَابُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً . هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً . وَمَنْ يَكْسِبْ

إِنَّمَا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » إلى آخر هذه الآيات من سورة النساء .

سقنا هذا القرآن لتدبره ونعرف كيف يكون العدل الذي فرضه الله علينا ، ونقيس ما نحن عليه بهذا المقياس الرباني ؛ لنعلم أين نحن من ذلك في تفكيرنا وما يحول بخواطرنا ، وفي أقوالنا وأفعالنا في أنفسنا وأقاربنا ومن تحب ومن نكره ، ونعرف مقدار ما أصبنا من خير بحرصنا على الحق والعدل ، وما أصبنا من شر يبعدنا عنه والتفريط فيه ؛ فنعود إلى الله ونستغفره ونرجو رحمته .

وليعلم المسلم أنه لا يكون مسلماً حقاً إلا إذا أصبحت عقيدته جزءاً لا يتجزأ من أخلاقه وسلوكه ؛ فيكون عادلاً مع الناس جميعاً ، ويحذر نوازع الهوى أن تميل به عن هذا العدل مع أقرب الناس إليه ؛ فلا يذكر إخوانه بسوء ، ولا يفتابهم ، ولا يلزمهم ؛ فإن أكثر الشرور إنما تنشأ عن مثل ذلك .

ثم ننظر كذلك فيما يعتريه غيرنا عدلاً وهو غير ذلك ؛ فإن هؤلاء لا يعدلون — إذا عدلوا — إلا بين بني جنسهم . أما بينهم وبين غيرهم فالعدل أبعد ما يكون منهم . وأمثلة ذلك كثيرة يمكن أن يقرأها الإنسان في كل تصرفاتهم وأحكامهم ؛ حتى يبدو ديننا لنا على حقيقته ، ونعلم أن الله أراد ببني الإنسان الخير في اتباعه والاهتداء بهديه والعمل به . وصدق الله العظيم :

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » .

قَصَصُ الْفُرَّانِ

آدم عليه السلام

عرض وتحليل للأستاذ البهي الخولي

(٥)

الإنسان والشیطان :

« ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولأمرنهم فليغيرن خلق الله (١) » .

روى النسائي والبيهقي وابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ ؛ فعصاه فأسلم فغفر له .. قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتذر دارك وأرضك وسماك ؟ ؛ فعصاه فهاجر .. قعد له بطريق الجهاد فقال له : تجاهد وهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال ؟ ؛ فعصاه فجاهد » .

ومن في الناس كرسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف لنا بيانه المشرق وعلمه العلوي عن وجوه الحقائق وخفايا المعاني حية نابضة تعدو وتروح في تجارب الناس وواقع حياتهم اليومية ؟

فهو عليه السلام في هذا الحديث يحدثنا عن مسالك ثلاثة أصيلة من التي يسلكها الشيطان لإضلال الناس وإبعادهم عن صوابهم الروحي ..

ولقد تحدثنا فيما مضى عما يعمد إليه الشيطان من إثارة غرائز المرء وإهاجة قواه الحيوانية ليطمس ما يستطيع من صوابه ويستدرجه إلى ما يشاء من الضلال .. ولا أقل من أن نعرف من نفوسنا ما يعرفه الشيطان منها من مواطن الفتنة ووسائل الضلال . فهذه الغرائز لا يصلحها في نفس المرء إلا أن تكون كالهواء الرهوي يصفو به الأفق

ويعتدل به وضع كل شيء ؛ فإذا خطرت أو تحركت وجب أن تكون كالنسيم أو الرِّخاء الوديع المقبلة بالمنفعة ولطف المناخ .. أما إذا أرخى لها صاحبها العنان ، وأطلق لها أن تذهب أنسى شامت فإنها تغدو عاصفة مضطربة تثير الضباب والغبار في سماء ذهن المرء وأفق صوابه الروحي على مامر بنا من شأن امرأة العزيز وشأن موسى عليه السلام .

وأحب أن نستحضر في أذهاننا صورة العاصفة الجارحة وقد أقبلت بضبابها وغبارها ، وانتشرت حولنا في كل مكان حتى ملأت علينا الأفق ، وحجبت عنا السماء ، وكسفت في أنظارنا شمسها الوضيئة المتوهجة ، ثم ليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى حوله في الأفق ؟ وماذا يصل إليه من نور السماء ؟ .

فإذا تمثلنا تلك الصورة فلنعلم أننا لم نبلغ بعد كشف النقاب عن كنه تلك العاصفة — عاصفة الغريزة — حين تمشي في كيان المرء بضبابها وغبارها فتعلا آفاقه ، وتحجب صفو سمائه الباطنة وشمس صوابه الروحي الوضيئة ؛ فعلينا — إذا أردنا كشف ذلك النقاب — أن تمثل العاصفة التي أقبلت على آفاقنا الدنيا ، أقبلت — ونعوذ بالله — وهي تحمل ضبابا لا كالضباب ، وغبارا لا كالغبار .. ضباب من الظلام الدامس ، وغبار من السواد الحالك ، لا يبصر فيه المرء مما حوله شخص إنسان ، ولا شبح شجرة أو حيوان ، ولا يظهر له في جانب من جوانبه خيط من نور ، إن هو إلا كسف السواد المتراكم بعضه فوق بعض ، إذا أخرج فيه يده لم يكدرها ... ثم ليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى من السماء ؟ وماذا يرى من شمسها الوضيئة المتوهجة ؟ . فإذا تمثل ذلك كله فليعلم أن تلك العاصفة هي الغريزة حين تنطلق في كيان المرء بغير زمام أو نظام ؛ وأن ذلك السواد الدامس هو تلك الغريزة نفسها كذلك ، إذ هي معنى غير نوراني ، وسر مظلم له من المادة طبيعة الظلمة ، فإذا انطلقت في أفق المرء المعنوي فقد انطلق الظلام وانتشر القمام ، وتوارت سماءه الباطنة ، وكسفت الشمس التي يتنزل منها صوابه الروحي ... وليسأل كل منا نفسه : ماذا يرى صاحب تلك الحال من وجوه الحق ؟ .. هل تبدو له قيم المعاني بما لكل منها من حرمة وقديسية ؟ أو تنطمس معالم تلك الحقائق وتغدو ساحة مهذرة الجوانب مقتحمة لكل مبتذل مستهتر ؟ .. وهل يقتحم المرء حماها القدسي — حين يقتحم — وهو مدرك شناعة ما يفعل ، ممتلىء بشعور الهية والتصون الواجبين لذلك الحمى ؟ أو أن ذاك الشعور قد زايله في تلك الظلمة العاصفة فاستوت لديه المحارم بما ليست له حرمة ؟ .. وهل تلك الحال هي التي عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا يزني الزاني — حين يزني — وهو مؤمن ؛

ولا يسرق السارق — حين يسرق — وهو مؤمن ؛ ولا يشرب الخمر — حين يشربها — وهو مؤمن^(١) ؟

ذلك شأن الغريزة حين تنطلق في كيان المرء بغير زمام ؛ ومن البديهي أن عصفها بصواب المرء ليس معناه استئصال مصادر النور الإلهي فيه ، بل معناه أن حائلا عرض بينه وبين تلك المصادر ، كما أن احتجاب الشمس في اليوم العاصف ليس معناه انطفائها ولا زوالها من سماء تلك الأرض ، بل هي وراء السحب العارضة متألقة الضياء باهرة اللآلئ ؛ فإذا زالت تلك السحب عاد الضوء إلى الأرض سيرته الأولى ... فإذا سألت : ومتى يعود الضوء إلى أفق المرء ؟ تلقيت الإجابة من كل ماتقدم بأن الضوء محجوب عن ذلك الأفق بما ران عليه من أهواء النفس وظلمة الغريزة ؛ فإذا انقشع ذلك الران عاد إليه صفاؤه الفطري ، ولعلنا الآن نمشي بإزاء نور قوله عليه السلام : « إذا زنى الرجل أخرج منه الإيمان وكان عليه كالظلمة ؛ فإذا أفلح رجع إليه الإيمان^(٢) » .

ولعل مما يؤنسنا في هذا المقام أن نذكر الصورة الصادقة التي وصف بها القرآن حال أولئك المنافقين الذين يتذبذبون بين طائفتي الإيمان والكفر ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ فإذا كانوا مع المؤمنين واستمعوا لما يتلى عليهم من آيات الله والحكمة امتد في آفاقهم شيء من نوره ، فإذا تحولوا بداعي المنفعة والهوى إلى أفق أهل الضلال كان لهم شأن آخر « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير^(٣) » .

ولعل مما تهش له السرائر أن نرى سورة النور تتحدث عن مثل نور الله في قلوب عباده كمشكاة فيها مصباح ، ثم تتحدث بعد قليل عن حال أولئك الذين حجبتهم أهواؤهم وشهواتهم عن ذلك النور فصاروا إلى تيه مظلم كثير القلق والعواصف لا يستقر فيه الوجدان على قزار خال بواطنهم « كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور^(٤) » .

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) رواه الترمذي والبيهقي .

(٣) البقرة ١٧ — ٢٠ .

(٤) النور : ٤٠ .

في حديثه الذي جعلناه غرة هذا المقال عن قعود الشيطان للمرء بثلاث سبل كبار هي جوامع سبل الخير للإنسان : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد . . وأنه استنفر فيه ما استطاع من قواه الغريزية ليحجبه بها عن صوابه ويرده إلى التي هي أخسر وأدنى . .

ولن نجد في غير الإسلام منهاجاً جامعاً لأصول التربية الروحية والاجتماعية وصدق التمييز لقيم المعاني كهذا الذي نجده في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وحسب المرء أن يفقه هذا المنهاج حق فقهه ليحرز نفسه من كيد الشيطان وليبطل زعمه الذي رمى إليه بقوله : « ولأضلنهم » . . ولا نستطيع أن نبسط القول في ثلاثها فلسناً بصدد ذلك ، وحسبنا الأولى شاهداً لنا في هذا المقام . . فقد قعد له بطريق الإسلام فقال له : « تسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فعصاه فأسلم فغفر له »

وهذا التعليم الكريم يشير إلى الحقائق الآتية :

١ — أن الشيطان لا يريد للإنسان أن يسلك سبيلاً إلى خير . . والخير الذي لا تغيب معرفته عن الشيطان ليس ثروة تحاز ، ولا جاهها تعلو به المنازل عند الناس ، ولا منصباً تساق إلى ساحته بضاعة النفاق والرياء ؛ وإنما هو سر من روح الله ، ومعنى أصيل ذو قيمة كريمة ، تهتدى به البصائر ، وتسعد السرائر ، وتعز الضمائر ، وتخلد به الباقيات الصالحات . . والشيطان يدرك ما قرره الإسلام من أن حيازة الباطل خسارة قاصمة ، وأن حيازة الحق هي النعم كله . وأعمال البطل كأعمال النائم الذي يحلم ، وأعمال الحق كأعمال اليقظ الذي يبني أموره على حقائق وسنن ، فإذا قعد للإنسان بسبيل الحق يصد عنه ، فليُنظر أي تهلكة تراد له ؛ ولنفهم على ضوء ذلك شناعة الشر الكامن في قوله : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ولأمر ما قعد لهم بسبيل الإسلام .

٢ — أنه استنفر في الإنسان غريزة التقليد للسابقين ومتابعهم على ما كان لهم من عادات ومعتقدات ومذاهب ، فقال له : دينك ودين آبائك ؟

ونحن نعلم أن التقليد أفق واسع من آفاق النفس ، كثير المسالك ، متشعب المناحي ؛ فهناك تقليد فرد لفرد ، وشعب لشعب ، وضعيف لقوى ، ومغلوب لغالب . وخلف لسلف ، وتقليد فيما هو حسن ، وتقليد فيما هو رديء ؛ ولكل ضرب من هذه الأضراب خصائصه التي تميزه وتعمده بأسباب القوة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصر الكلام هنا على ضرب واحد منه فقط هو تقليد السابقين حيث تقوم الغريزة فيه على مجرد التابعة ، والاستسلام لسلطان العادة ودفع الزمن ، لا على محض الإرادة وتمحيص الصواب .

ولسنا نخشى على الناس أن يقلدوا سابقهم في الضار من أمور المعيشة ؛ فإن واعظ الصلحة الخاصة في أذهانهم أحجى من أن يدعهم إلى ما لا نفع فيه ، ولكن نخشى ذلك التقليد الذى يهدر أقدار الحقائق ، ويتعطل به في المرء صوابه الروحى ، ويفرض عليه أن يستقبل الحياة بعينين مغمضتين ، وأنت تقرأ فى القرآن الكريم أبناء أولئك الذين طالما ردوا ما جاءهم من الهدى والعلم قائلين كلما جاءهم رسول : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » . وهو احتجاج كما ترى يفصح لك عن مبلغ مجانبهم للمنطق ، وتعويلهم المطلق على برهان المتابعة وحجة التقليد .

وحين يتأمل المرء فى برهان المتابعة هذا ليعرف ما هو ، أو على أى سنة من سنن العقل يعتمد ، لا يجد أمامه شيئاً ! ! إذ تترايل تخيلات الوهم ولا يبقى تحت أشعة الفكر إلا تلك المحنة التى تقضى على الإنسان — وهو السكأن الممتاز بسعة الأفق وصدق التأمل — أن يعيش فى ظلال أوهام لا تثبت لما يثبت له نسج العنكبوت .

٣ — ويشير الحديث إلى أن الشيطان لا يكتفى بإثارة غريزة واحدة فى غريمه بل يستنفر فيه كل ما يستطيع من أهواء وحوافز يراها معينة له على ما يريد . . . فقد راح يستنفر مع غريزة التقليد حمية الجاهلية وتعصبه لآبائه وأجداده بقوله : « دينك ودين آباءك » . . . وفى الإنسان ميل إلى تعجيد آباءه والمبالغة فيما كان لهم من روعة الشأن وسلامة التقدير . . . وهو ميل من شأنه أن يثير فى صاحبه كثيراً من الضباب والهوى يقوى به سلطان المتابعة وإحشاء التقليد .

٤ — ويقرر الحديث فضل الإرادة فى تزكية الغريزة وإعلاء أهدافها بقوله عليه السلام : « فعصاه فأسلم » .. فإن العصيان حركة مضادة واتجاه يرمى إلى المقاومة والمنازمة ، ولا بد فى ذلك من الإرادة . . .

ولاشك أن هناك مرحلتين سبقتا مرحلة العصيان والمقاومة : مرحلة توقف فيها المرء عن متابعة الماضى وتخلص من دفع الزمن ، وضبط فيها هواء وسيطر على زمام نفسه . . . ولا سبيل إلى ذلك — طبعاً — إلا إذا كانت له إرادة حازمة جادة . . . وفى تلك اللحظة التى تخلص فيها من كل مؤثر دخيل على العقل كان يقف فى صحوة صوابه الروحى يتأمل فى القيم المختلفة ، ويفاضل بين ما يلقى إليه الإسلام ، وبين ما يلقى إليه الماضى من تراث الآباء — وتلك هى المرحلة الثانية — . . . حتى إذا اقتنع عقد العزيمة على ما هو أرشد : « فعصاه فأسلم » .

وقوله : « فعصاه فأسلم » . يبين لك ضعف هذا العدو ، وسهولة تبديد كيده إذا أنت لقيته بإرادة مجتمعة ، ووعى متنبه حصيف .

شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

١ — التقيت بعالم من أكبر العلماء قدراً ، وأنهمم ذكراً ، فذكر لي أنه كان في مجلسه رجل يُحتَسب من رجال القانون ، ويُعد من كبارهم عند الكثيرين منهم ؛ أو على الأقل يظنونه كذلك ؛ وقال لي العالم الفاضل إنه سمع ذلك القانوني يتنقصني لأنني أعتقد أن الشريعة الإسلامية خير الشرائع في القديم والجديد ، وأصلحها لمعالجة أدواء المجتمع في الماضي والحاضر ؛ وأنها شريعة السماء لا تُنْهَد لمثلها شرائع أهل الأرض ، وأنني في ذلك أتشدد ، وأنني أوازن وأقارب وأسدّد ، أو أحاول ذلك ؛ فعجبت من أن قانوني يتنقص رجلاً من المنصرفين للعلم ؛ لأنه رأى أن شريعة من الشرائع هي خيرها ؛ وأن قانوننا خير من قانون . فهل يُتنقص قانوني إذا قال إن القانون الألماني خير من الفرنسي ، أو قانون الاتحاد السويسري خير من الشراوع اللاتيني ؟ !! إنهم بلا ريب لا يتنقصون قائل ذلك القول ؛ لأن الرجل لا ينتقص لمذهبه ، والعالم لا يُجهل لرأيه ؛ هذا إذا كانت الموازنة بين رأي ورأي ، أو مذهب ومذهب أو قانون وقانون ؛ فكيف إذا كانت الموازنة بين شرع منزل من السماء ، وقانون من غرس أهل الأرض ، أقلام مسلم لأنه يرى أن شريعة القرآن خير من كل الشرائع ؟ !! إن ذلك لغريب عجيب وإنه ليكون أشد غرابة إذا كان اللائم من الذين يعدون في المسلمين ؛ بل إن الأمر ليعلو عن الغرابة إذا تبين أنه كان في مجلس ذلك العالم قانوني فرنسي ؛ وقد قرر أنه يرى أن الشريعة الإسلامية في دقة علاجها ، وحسن تفريعها ، وارتباط الأقيسة التي استنبطها فقهاؤها أدق الشرائع بإطلاق .

٢ — هذا قول المسيحي الغربي وذلك قول المسلم الشرقي في شريعة دينه ، وفي قوانين قرآنه ؛ ولكن البلاء كان قد عم ، وسيئله كان قد طم ، وكان مصدره بعض أولئك الذين يظنون أن ما عند الغرب هو كل شيء ، وما عند الشرقيين ليس بشيء . لقد شاه تفكير بعضهم ولم يكتفوا بتركهم لشريعتهم ، وعشقهم للقوانين الأوروبية ، بل لقد استهوهم فحسبوا فيها الكمال المطلق ، وفيما عندنا النقص المطلق ؛ وإن نظروا لما عندنا وأرادوا أن يعطوه بعض التقدير قاسوا ذلك بمقدار قربه مما عند الأوروبيين ،

ولمخ ذلك فيهم بعض العلماء من المسلمين ، فأخذوا يبينون لهم قرب الشريعة مما عندهم ، وبحثوا عن غرائب الفتيا ليثبتوا عظيم اطلاعهم بالإتيان بما يوافق الأفكار الأوروبية سواء أ كانت هذه الأفكار صالحة أم كانت طالحة أمام العقل المستقيم ؛ ونال أولئك العلماء حسن التقدير من بعض مقلدى الأوروبيين ، أما من حاول أن يبين الشريعة غير متزيد في القول ، ولا محمّل للألفاظ ما لا تحتمل ، ومقدراً للحقائق العلمية بمقدار نفعها ؛ فأولئك جامدون في نظر هذا البعض ، لا يسايرون الزمان ، ولا يسايرون مع الركبان ، وأنهم وراء القافلة لأمامها ، وأنهم حجة على الإسلام ، وأنهم يجعلون شريعته قانوناً بائداً ، ولا يجعلونها قانوناً خالداً .

ولقد اخترت — مستعيناً بالله ، طالباً براضه — أن أعرض الشريعة كما هي من غير أن أحرف القول عن مواضعه ، ومن غير أن أتحرى إرضاء أحد من العباد ، ولا أن أنال تقدير أحد بغير الحق ، إني أبتغي رضا الله ، فلا يهمني رضا الناس ، وسواء على أرميت بالجمود أم حظيت بالتقدير . وإذا رميت بالجمود ؛ لأنني أبين شريعة محمد كما جاءت ، وكما نزلت من غير تحريف ولا تصحيف ، فإنني راض مطمئن إلى هذا اللقب ممن آفت المدينة الغربية تفكيرهم ولم يزونا الأمور بميزان الحق ، ولم يقدروه بالقسطاس المستقيم . وإن رضوا عن قولي مع قيام تلك الآفة بنفوسهم فإنني حينئذ أراجع ما أقول وأتشكك فيه ؛ لأعرف أدفع إليه الفكر المستقيم أم جمح به الهوى عن الشرع القويم ؟ . ونحمد الله على أن أولئك ليسوا كثيرين الآن ، وهم في طريق الهداية . والبقاء للأصلح دائماً . وإن كثرة إخواننا من علماء القانون نسعد بتشجيعهم ، وبعض الأكابر منهم لهم علينا فوق التشجيع بعض التوجيه .

٣ — ولكن دفعنا إلى هذا القول لوم الدين يغتابونا لدفاعنا عن شريعتنا ، ويأخذون علينا أننا اعتبرناها بذاتها من أدلة إعجاز القرآن ، وبراهين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أقول قولي هذا وأطلب من الله لهم الهداية وأستغفر الله لي ولهم ، وعفا الله عنهم . وأعود إلى تنعيم ما بدأت ؛ فقد بينت مافي الشريعة من أحكام في تعدد الزوجات وفي الطلاق ، وفي العتق والرق ؛ والآل نبين أحكامها في الإرث ؛ وأنها أتت بنظام في الميراث لم تسبق بمثله ، ولم يصل إليه من بعد لاحق ؛ ولا يزال إلى اليوم أدق للوازن في توزيع التركات ، وأحكمها في تحقيق العدالة بين الوارثين ، ولقد شهد بذلك الدين اطلعوا على نظام التوريث في الإسلام من الأوروبيين ، وما شهدوا إلا بما

علموا ، ولعل الذين يتقنون العلم الغربي ولا يعرفون علما في الشرائع سواء قد قدروا شريعتهم في الميراث لهذه الشهادة التي سبقوهم بها .

٤ — وإن أول ما يلاحظه الدارس لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أنه جعل نظام التوريث إجباريا في الثلثين وجعله اختياريا في الثلث ؛ فجعل للمورث الحق في الثلث يتصرف فيه بعد الموت بالوصية لمن يشاء . والأكثر على أن ذلك الثلث إن أراد الوصية فيه لا تكون لوارث ، حتى لا يغير قسمة الله التي قسمها ؛ وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله فرض الفرائض ، وأعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » ولأن إعطاء بعض الورثة بالوصية دون الآخر تغيير لقسمة الله في الموارث والفرائض فبدل أن يكون للبنات النصف يكون لها النصف والثلث . ولقد قرر ذلك النظر جعفر الصادق رضي الله عنه .

أما الثلثان فالميراث فيهما إجباري بحكم الشارع ليس للمورث أن يوصي منهما بشيء ، ويدخل في ملك الوارث جبرا عنه من غير أن يكون له اختيار ؛ لأنه حكم الشارع وأمره يسرى على الوارث والمورث على سواء . والحكم كذلك في كل المال إن لم تكن وصية يكون الملك إجباريا بالنسبة للوارث ، ولقد قرر الفقهاء أنه لا شيء يدخل في ملك الشخص جبرا عنه إلا للميراث .

٥ — ولقد جعل الشارع الوراثة الإجبارية في الأسرة لا تعدوها ، أراد المورث ذلك أم لم يرد ، لأن ذلك من عمل الشارع الحكيم ؛ لأنه أراد أن يصل العلاقات في الأسرة بالمودة العاطفة ، وبالمال يساعد بعضها بعضا به في الحياة ، ويخلف القريب قريبه فيه بعد الوفاة ، وقد أمر الشارع القريب الغني بالإتفاق على قريبه الفقير ، نشرا للمودة في القربى ، وجعل الميراث بعد الوفاة ليكون التعاون في جمع المال كاملا ؛ كما تكون المودة كاملة ، وجعل نفقة الأقارب والميراث يسيران في خط واحد ؛ لأنهما ينبعان من أصل واحد ، فمن كانت تجب عليه نفقته إذا احتاج هو الذي يرثه لو مات غنيا ؛ لأن الغرم بالغنم ، والحقوق والواجبات متعابلة .

وإن ذلك من قبيل محافظة الشارع الإسلامي على الأسرة ؛ لأنها وحدة البناء الاجتماعي ؛ وإنه في الوقت الذي تنحل فيه الروابط في الأسرة يبتدىء الانحلال في المجتمع ؛ وإن الذين يغيرون على المبادئ الاجتماعية السليمة يجعلون الأسرة هدفهم ، يحلون محلها ليحلوا محل المجتمع عروة عروة .

٦ — وإن جعل الشارع الإسلامي الوراثة في الأسرة مجتمعة على أن يكون بعضها

أولى من بعض نظر متوسط بين نظر الاشتراكيين الذين يحنون التوارث محوآ تاما ، ولا يعتبرون للشخص إلا ما كان من كسبه يده . وبين نظر الإقرايين الذين يجعلون للمالك سلطانا في ماله بعد وفاته يتصرف فيه كما يشاء كما كان له سلطان في حياته ، وفي كلتا النظريتين إطراح للأسرة ، أو نظرة لها من أضيق آفاقها ؛ كما هو الشأن في الشرائع التي جعلت الميراث الإجباري في الفروع وحدهم ، وبقدر ليس بكثير . لقد جاء الشارع الإسلامي ، وسلب من المورث الإرادة في الثلثين ، وترك له الثلث يتصرف فيه بالمعروف كما شاء ؛ وما سلب منه الإرادة في الثلثين إلا ليحمي الأسرة ، وليعطيها ماله بالقسطاس المستقيم ، ولكيلا يكون في الأسرة جفوة بسبب المنع والإعطاء إن ترك ذلك للمورث .

٧ — وإن التوزيع الذي تولاه الله في كتابه العزيز يقوم على دعائم ثلاث :
أولها : أنه يعطي التركة للأقرب الذي تعتبر حياته امتدادا لشخص المتوفى من غير تفرقه بين كبير وصغير ، ولذلك كان أكثر الأسرة حظا في الميراث الأولاد ، ومع ذلك لا ينفردون بالميراث ، بل يشاركون فيه غيرهم ، ولكن لا يكون مجموع ما يستحقون أقل من النصف .

وإن مشاركة غيرهم بنحو النصف هو لمنع جميع المال في جانب ، فالأبوان يأخذان الثلث ثم يكون من بعدهما لأولادهما ، وهم إخوة المتوفى الذين يشول إليهم نصيب الأبوين فيكون الاشتراك في المال بدل الانفراد . وإن لم يكن أبوان فقد يأخذ الإخوة مع الأولاد ، كالحال إذا كان فرع أنثى ، فمع أن الميراث يكون للأقرب لم يكن الإعطاء على سبيل الاستئثار ، بل على سبيل الاشتراك .

٨ — وثانيها : الحاجة ، فيكثر القدر في الميراث كلما كانت الحاجة أعمد ، وأعل ذلك هو السر في أن نصيب الأولاد أكثر من نصيب الأبوين مع أنهم في درجة واحدة من القرابة ، بل إن الأبوين لها نوع ملك في مال ولدهما ؛ لقوله عليه السلام : « أنت ومالك لأبيك » . ولكن حاجة الأولاد إلى المال أشد لأنهم في غالب الأحوال ذرية ضعاف ، خصوصا إذا كان الأبوان على قيد الحياة . وهم يستقبلون الحياة والأبوان يستدبرانها ، ولهما في الغالب فضل مال ، فحاجتهما إلى المال ليست بحاجة الذرية الضعاف ، وما يرثه الأبوان يكون لأولادهما ، وهم في الغالب كبار ، وسيرثون الأب في الطريف والتأد من المال ، بينما الذرية لا ترث شيئا .

وإن ملاحظة الحاجة هو السبب في أنه كان ميراث الذكر ضعف ميراث الأنثى ،

لأن التكاليف المالية على الزوج دائماً ، وليس على المرأة تكاليفات مالية كتكاليفات الرجل ؛ لأن الفطرة التي أقرتها الشريعة تجعل المرأة قوامه على البيت والرجل عاملاً كادحاً في الحياة ، وهذا بلا شك يجعل حاجة المرأة إلى المال دون حاجة الرجل ، ولا شك أن التفاوت لتفاوت الحاجة عدل ؛ والمساواة عند تفاوتها ظلم ، وهي من المساواة الظالمة لا العادلة .

٩ — ثالثها : أن الشريعة الغراء بنص القرآن الكريم وصحيح الحديث تتجه بالميراث إلى التوزيع دون التجميع كما أشرنا ؛ فالقرآن لم يجعل الميراث في واث واحد يستبد به دون الباقيين ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأبناء دون الآباء ، بل وزع التركة بين عدد من الورثة ، والصورة التي يستبد فيها واث بالتركة نادرة جداً ، وهي تكون حيث يقل الأقارب ، وما كان نظام التوريث ليخلق القرابة ، بل يوزعها بالعدالة والقسطاس بين القرابة فيوزع بمقدار قربها وقوتها .

ولذا نرى الأولاد جميعاً يشتركون في الميراث بحكم القرآن ، وقد يشاركهم أولاد الأولاد ، وإن كان آباء فإنهم يشاركونهم لا محالة ، وكل ذلك فيه توزيع لا تجميع .

١٠ — وإذا انتقل الميراث من عمود النسب إلى الحواشي يُوزع بينهم من غير أن تستبد قرابة دون قرابة ، فإذا كان إخوة أشقاء ولأب ولأم ؛ وزع بينهم الميراث فأولاد الأم يأخذون عند وجود الأشقاء مع تعارف الناس جميعاً على أن الأشقاء أقوى قرابة ، وأوثق اتصالاً ، وأقرب رحماً وفيهم النصراء والأعوان ، ولكن قرر القرآن ذلك لكيلا تتحيز التركة في جانب واحد ؛ وفوق ذلك يكون في ذلك إعلان لنصرة الأمومة ، وقوة علاقتها ، وأنها تربط بين أولادها كما يربط الأب ؛ فيشعر الإخوة بالذين تربطهم الأم بأنهم في قوة القرابة بدرجة تقرب من قوة الأب ؛ وإن هذا قد يؤدي إلى ألا ينفر الأولاد من زواج أمهاتهم ، ولا يعضوهم لتوهم عار أو نحوه ؛ لأنهم يعلمون أنهم بهذا الزواج يصلون قرابات بقرابتهن ، ويزيدون الأنصار والأولياء . وإنهم يرثون بمقتضى أحكام القرآن مع وجود الأم ، فيكون للأم وأولادها من غير أبي التوفى بذلك قدر موفور من التركة يصل إلى نصفها أحياناً ؛ وما يشول للأم يشول إليهم بوضه ؛ فيكون لهم هم قدر كبير .

١١ — ومما بنى على هذا النهج الذي سلكه القرآن هو توزيع التركة بين الأقربين دون تجميعها ما استنبطه الفقهاء من أحكام القرآن ؛ من أن من اتصل بالميت عن طريق واث لا يرث مع وجود من اتصل به ، بذلو كان كلاهما يرث فيرث

الابن وابنه ، أو الأب والجد ؛ لكان ذلك جمعاً للتركة في حيز واحد ؛ أو على الأقل يكون جمعاً لشطر كبير منها في ذلك الجانب ، والقرآن وزع التركة وعم في التوزيع للقرابة القريبة ثم التي تليها ، ثم البعيدة ، تقوية لدعائم الأسرة ، ووصلا لحبل المودة ، وتقريباً للبعد .

١٢ — ولقد أختار الإسلام ذوى الأرحام في الميراث ، وهم الذين تتصل قراباتهم بالميت عن طريق النساء فيما عدا الإخوة لأُم ؛ لأن هؤلاء ينتمون إلى أسر أخرى غير أسرة المتوفى ، ولهم غالباً ثروات آلت أو تثول إليهم من طريق تلك الأسر ؛ فكان المعقول ألا يزاحموا الذين ليست لهم أسرة أخرى ينالون الميراث عن طريقها ، فبنت البنت لا تزاحم بنت الابن ؛ لأن هذه ليست لها أسرة تنال منها ميراثا غير أسرة أبيها أما ابنة البنت ، فأسرة أبيها قد يكون فيها فضل مال يغنيها .

إن قسمة الموارث تولاها القرآن بنصوصه الصريحة في الأرقام ، فهي قسمة الله العادلة وتوزيعه الحكيم ؛ ولم يعرف البشر توزيعاً قريباً منه في عدله ، وقد تولى سبحانه بيانها لكلا يضل الناس ، فإن تركوها بعد البيان فعن بينة تركوها ، وقد قال سبحانه بعد بيان الموارث : « يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم » .

تنتيه ورجاء

ينتهي بصدر هذا العدد الاشتراك عن نصف سنة ، وترجو إدارة المجلة

من حضرات الراغبين في تجديد اشتراكهم أن يبادروا إلى ذلك مشكورين

قبل طبع العدد السادس

الإدارة

في ظلال القرآن

للاستاذ سيد قطب

(٣)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا . بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ! يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا . وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ : الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ، وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَخْيَاكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : انبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ؟

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا ، إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . . .

« وَقُلْنَا : يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا اهْبِطُوا : بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . »

« قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ، فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . . »

* * *

مضى السياق بمثلين ضربهما الله للمناققين ، الذين يرون الهدى فلا ينتفعون به ، ويطلبون النور ثم يجانبونه . . « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ... » . « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت . والله محيط بالكافرين . . »

واعلم قوما ممن عاصروا نزول تلك الآيات قد حاك في نفوسهم شيء من أن يضرب الله الأمثال ؛ لأنها مجاز لا حقيقة ، وفرض لا واقع . ولعل أقواما مما يستمعون إلى القرآن ، أو يقرأونه في أى زمان يحيك في نفوسهم شيء كذلك ، يرون أن هذا الأسلوب إنما يليق بشاعر يرمى إلى الرؤى والأخيلة أكثر مما يرمى إلى الواقع والحقيقة ؛ فهنا تصحيح لذلك الوهم ، وبيان لحكمة الله في ضرب الأمثال : إنها اختبار لمعادن العقول والقلوب ، يختلف وقعه ، وتختلف الاستجابة إليه باختلاف النماذج الإنسانية التي تتلقاه .

وهكذا يرتد السياق إلى نموذجين وردا من قبل في نموذج المؤمنين المتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ؛ لأنهم يشقون بالله وبما يأتيهم من عند الله ، ولأن بصائرهم مفتوحة للنور مستعدة للهدى . . ونموذج الكافرين ، الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا يستجيبون للنور والهدى ، وهم لا يفقهون بينة ولا مثلاً .

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما : بعوضة فما فوقها » فالله رب الصغير والكبير ، وخالق البعوضة والفيل . وليست هذه الشكايات هي المقصودة في الأمثال ، إنما هي أدوات للتوير والتصور ، وليس في ضرب المثل معيب يُستحي منه فيمتنع عنه . فهو أسلوب من أساليب البيان والإيضاح ، ربما كان أدخل إلى النفوس وأحب إلى القلوب . فضلاً على أن الله — جلت حكمته — يريد بالمثل اختباراً وامتحاناً للقلوب : « فأما الذين آمنوا » — بما فطرت عليه طبيعتهم من تفتح واستشراق للهدى ، وثقة في الخالق الأعلى — « فيعلمون أنه الحق من ربهم » . . . « وأما الذين كفروا — بما في قلوبهم من استغلاف ، وبما في بصائرهم من عتامة — فلا يفقهون له معنى ، ولا يستشعرون له وقعاً » فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ . . ماذا أراد الله به ؟ « يُضِلُّ به كثيراً » ممن انحرفت فطرتهم وفسدت ، وتقطعت روابطهم بالقوة الكبرى المشرقة على الكون ، والتي تتصل بها القلوب حين تصفو وتفتح وتستشرف « ويهدي به كثيراً » ممن عمرت الثقة بالله قلوبهم ، فاتصلت بالنبع ووثقت بالله . « وما يضل به إلا الفاسقين » . .

وهنا يأخذ السياق في رسم خصائص الفاسقين هؤلاء ، الذين يضلون بما يهتدى به المؤمنون .. إنهم أولئك « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض » .

فأى عهد من عهود الله هذا الذي ينقضون ؟ وأى أمر مما أمر الله به أن يوصل هو الذي يقطعون ؟ وأى لون من الفساد في الأرض هو الذي يوقعون ؟ .. لقد جاء السياق بهذا الإجمال هنا ؛ لأن المجال مجال تشخيص طبيعة ، وتصوير نموذج ، لا مجال تسجيل حادثة ، ولا تفصيل واقعة .. إن الصورة هنا هي المطلوبة في عمومها ؛ فكل عهد بين الله وبين هذا النموذج من الخلق منقوض ، وكل ما أمر الله به أن يوصل بينهم مقطوع ، وكل فساد في الأرض منهم مصنوع . . إن صلة هذا النمط من البشر بالله مقطوعة ، وثقتهم في أساسها بالله ممنوعة . وإن فطرتهم المنحرفة لا تستقيم على عهد ، ولا تستمسك بعروة ، ولا تتورع عن فساد .. وفي القرآن — في مواضع أخرى — أمثلة جزئية كثيرة على نقض عهد بعينه ، وعلى قطع ما أمر الله به أن يوصل ، وعلى الفساد في الأرض ، تأتي هنالك مفصلة لأن السياق هنالك يقتضى هذا التفصيل . أما هنا فالإجمال الكلي هو الذي يتسق مع الجو العام . فلا نحاول إذن ونحن في ظلال هذا الجو أن نفصل ما أراد الله له الإجمال !

ولكننا ننظر في الآثار الهدامة لهذا النمط من البشر ، في مقابل الآثار البناءة لذلك النمط الذي افتتحت به السورة .

هنالك : المتقون «الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ويمازقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون »
وهنا : الفاسقون «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض »

أولئك هم المتصلون بالله ، العابدون له الموثقة روابطهم به . المتصلون بالناس المصلحون للمجتمع ، الواصلون للرحم الإنسانية . المستمسكون بهدى الله لا يفرقون بين رسله ودينه . الموقنون بالأخرة وبالعدل والجزاء .

وهؤلاء هم الفاسقون المنحرفون عن السواء ، الذين ينقضون عهد الله فلا تربطهم به صلة ، ويقطعون كل عروة رابطة ، ويوقعون في الأرض الفساد .

وإذا نُقض عهد الله من بعد ميثاقه فكل عهد دون عهد الله منقوض ، وإذا قُطع ما أمر الله به أن يوصل فقد تفككت الروابط وانخلت العرى ، وتمزقت الصلات ، وإذا وقع الفساد في الأرض فقد فسدت الحياة وشملتها الفوضى . . فأى هدم وأى تشويه وأى فساد هذا الذي يخلفه في الحياة أولئك الفاسقون ، بانحرافهم عن الإيمان والثقة بالله ؟! ثم يعقب السياق بالاستنكار للفسوق والكفر . في إجمال كذلك سريع جامع شامل يناسب الجو كله ، ويتسق مع ظلاله :

« كيف تكفرون بالله ؟ وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحْيِكم ، ثم إليه ترجعون » .

هكذا في آية واحدة قصيرة ، يفتح سجل الحياة كلها ويطوى ، وتعرض كالبرق صورة البشرية في قبضة الباري : ينشرها من همود الموت أول مرة ، ثم يقبضها بيد الموت في الأولى ، ثم يحْيِها كرة أخرى ؛ وإليه رجعتها في الآخرة ، كما كانت له نشأتها في الأولى . .

كيف تكفرون بالله ، وها أنتم أولاء في قبضته ، وفي قدرته ، وفي مشيئته . من المبدأ إلى المصير . من قبل أن تروا النور ، وعندما توارىكم القبور ، ومن بعد البعث والنشور ؟ كيف تكفرون بالله ، وصلتكم به قائمة ، وإليه المبدأ والمصير ؟

إن السياق هنا يستعرض موكب الحياة كله في ومضة ، يرتسم فيها ظل القدرة . . ويعقب عليها بومضة أخرى لنفس الغرض وفي نفس الاتجاه . . وكلتاها مكملتان للأخرى :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات » . . . هكذا فى آية كذلك قصيرة ، يبرز إلى الوجود عالم الأرض كلها بما فيها ، وعالم السموات السبع جميعاً . . . إنها القدرة التى يستنكر العقل والضمير كفرها وجودها ، والفسوق عن هديها وعهودها .

ويكثر المفسرون هنا من الكلام عن خلق الأرض والسماء . يتحدثون عن القبلية والبعدية . ويتحدثون عن الاستواء والتسوية . . . وينسون أن « قبل وبعد » اصطلاحان بشريان لا مدلول لهما بالقياس إلى الله تعالى . وينسون أن الاستواء والتسوية اصطلاحان لغويان ، يقربان إلى التصور البشرى المحدود صورة غير المحدود . . . ولا يزيدان . . .

ثم يورد السياق قصة آدم . . .

والقصص فى القرآن يرد فى مواضع ومناسبات . . وهذه المناسبات التى يساق من أجلها تحدد مساق القصة ، والحلقة التى تعرض منها فى كل مناسبة ، والصورة التى تأتى بها ، وطريقة أدائها كذلك . لأن كل صورة تأتى مناسبة للسياق الذى تذكر فيه ؛ تحقيقاً للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه . . ويحسب أناس أن هنالك تكراراً فى قصص القرآن ؛ لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى مواضع شتى . ولكن النظرة العميقة تقول : إنه ما من قصة أو حلقة من قصة قد كررت فى صورة واحدة من ناحية القدر والأداء . وأنها حينما تكررت كان هنالك جديد تؤديه فى السياق . . . ويزنح أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها ، يقصد به مجرد الفن : بمعنى التزييق الذى لا يتقيد بواقع ! ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن ، وهو مستقيم الفطرة مفتوح البصيرة أن السياق هو الذى يحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع ، كما يحدد طريقة العرض وخصائص الأداء . . . والقرآن كتاب دعوة ودستور نظام ، لا كتاب تاريخ ولا قصة . . وفى سياق الدعوة يحى قصصه المختار ، بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزييق ، ولكن يعتمد على إبداع العرض وإعجاز الأداء (١) .

فلننظر فى قصة آدم كما جاءت هنا ، فى ظل ذلك السياق الذى أسلفنا . . . إن السياق هنا يستعرض موكب الحياة . بل موكب الخلق كله . ثم يتحدث عن

(١) راجع بتوسع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن »

الأرض ويقرر أن الله خلق كل ما فيها للإنسان : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » فى هذا السياق تجيء قصة آدم مجملة — بالقياس إلى تفصيلاتها فى مواضع أخرى — ويجيء فيها النص على أن آدم خلق لغاية معلومة . هى استخلافه فى هذه الأرض ، وإعطاؤه مقاليدها : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل فى الأرض خليفة »

والسياق هنا يستعرض نموذجين من الطبائع البشرية : المؤمنين : الذين تطمئن قلوبهم لله ، فإذا سمعوا ما يضرب من أمثال علموا أنه الحق من ربهم بلا محال ولا جدال .. والفاسقين : الذين انحرفت فطرتهم وضلت فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، ولا يدركون حكمته ، ولا يستجيون له .. فى هذا السياق تُستعرض حكمة الله فى استخلاف آدم فى الأرض . هذه الحكمة التى تستقبلها نفوس الملائكة الصافية المؤمنة بالرضى والتسليم . وتستقبلها نفس إبليس المنحرفة الضالة بالاستكبار والعصية : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا ، إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » . وفى معرض الإيمان والكفر فى هذا السياق ، تنتهى القصة كذلك بانتهاء البشرية كلها إلى طريقين : طريق الهدى وطريق الكفر : « قلنا : اهبطوا منها جميعا ، فإنما يأتينكم منى هدى . فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

ذلك مجمل الخطوط فى معرض القصة هنا . وهى تتناسق مع معرض السياق الذى وردت فيه . وتختلف عنها فى معارض القصة ذاتها فى مناسبات أخرى ؛ لاختلاف الجوّ والسياق هنالك . والحكمة التهذيبيّة التى تساق من أجلها فى تلك المناسبات . فلنعش لحظات فى ظلال قصة البشرية الأولى :

هنا نحن أولاء بعين الخيال ، وفى ومضات الاستشراق .. فى ساحة الملأ الأطل ..
وهنا نحن أولاء نشهد نشأة البشرية الأولى ..

« وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل فى الأرض خليفة .. قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون » ...

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » ...

من هم الملائكة ؟ من هو إبليس ؟ كيف قال لهم الله ؟ كيف أجابوه ؟ أين كان هذا

الحوار ومتى كان ؟ ما الأسماء التي علمها الله لآدم ؟ من الدين عرضهم الله على الملائكة فلم يعرفوا أسماءهم ؟

هذه وأمثالها في القرآن الكريم مما لم يرد فيه تحديد ولا تفصيل .. كله غيب من الغيب الذي أسلفنا أن العقل البشري عنه محجوب ؛ وأن في الإيمان به صيانة للطاقة الفكرية من أن تتبدد في غير مجالها ، ومن أن تنفق عبثاً بلا جدوى .. ومتى آمن العقل بالبدئية الأولى : بدئية أن الجزء لا يمكن أن يدرك الكل ، وأن الذي خلق أعلم بما خلق ممن خلق .. متى آمن العقل بالقدرة المطلقة وبالعلم المطلق .. فأولى به إذن أن يدع هذا الغيب الذي لا يملك وسيلة لإدراكه .. أن يدعه لعالم الغيب والشهادة . لا استسلاماً جاهلاً أعمى ، ولكن تسليماً بالبدئية العقلية الأولى ..

وإذا كان العقل لا يدرك هذا الغيب ولا يجد إلى الاطلاع عليه سبيلاً . فليس معنى عجزه أن يتبجح وينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى برهان . واحترام العقل ذاته يقتضيه ألا ينكر ، إلا وقد أحاط علماً بما ينكره ، واستيقن من عدم وجوده .

إن الاستسلام للوهم والخرافة شديد الضرر والخطورة . ولكن أخطر منه وأضر التكرار للمجهول كله وإنكاره ؛ لأنه تنكر لتلك البدئية الأولى ، وإنكار لطبيعة العقل وحدوده ، وإقحام لهذا العقل في غير مجاله ، وتبديد لطاقته في غير ميدانها ، وتطاول منه على حكم لا يملك أسانيد .

فلنأخذ إذن من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية ، ومن مبادئ وعظمت ومثل ، ومن توجهات في العقيدة والسلوك .. فذلك كله أنفع وأجدى ..

« وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » .. وإذن فهي الإرادة الكبرى تسلم لهذا الكائن البشري زمام هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق الأعلى في الإبداع والتكوين ، والتنويع والتركيب .. وإذن فقد وهب هذا الكائن البشري من الطاقة الكامنة ما يناسب هذه المهمة الضخمة ، ومن الإمكانيات الخفية ما يحقق هذه المشيئة العظيمة .. وإذن فهناك وحدة أو تناسق بين النواميس السارية في هذا الكون والنواميس التي تسير عليها الطاقة الكامنة في ذلك المخلوق ؛ كي لا يقع التصادم بين هذه النواميس .. وإذن فهي منزلة عظيمة منزلة هذا المخلوق في نظام الكون كله . وهو التكريم الذي يتحدث عنه خالقه العظيم : « ولقد كرّمنا بني آدم » ، وما سجود الملائكة الذي أمرهم به ربهم : إلا إعلاناً لهذا التكريم ، الذي تقرر عندما شاءت الإرادة الكبرى أن تستخلفه في هذا الملك العريض ..

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك »
 وإذن فقد كان لديهم من شواهد الحال ، أو من العلم السابق ، أو من إلهام البصيرة
 ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته في الأرض ؛ وما
 يجعلهم يعرفون أو يتوقعون ، أنه سيفسد في الأرض وأنه سيسفك الدماء .. وإذن فهم
 بفطرة الملائكة التي لا تتصور إلا الخير المطلق وإلا السلام الشامل يرون التسييح
 بحمد الله والتقديس له هو وحده الغاية المطلقة للخلق ، وهو الخلق بأن يتحقق وجوده .
 وهو متحقق بوجودهم هم يسبحون الله ويقدمونه .

لقد خفيت عليهم أهداف الإرادة المطلقة الكبرى في بناء هذه الأرض وعمارتها ،
 وفي نمو الحياة وتفرعها وتنويعها ، وفي إبراز مشيئة الخالق الأعلى في الإبداع
 والتكوين والتركيب ، على يد خليفة الله في أرضه . هذا الذي قد يفسد أحياناً وقد يسفك
 الدماء أحياناً ، ليم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشم . خير النمو
 الدائم ، والترقي الدائم . خير الحركة الهادمة البانية . خير المحاولة التي لا تكف عن
 استكناه سر الناموس ، وعن التطلع إلى ما هو أعلى .. « قال : إني أعلم ما لا تعلمون » .

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبثوني بأسماء هؤلاء . إن
 كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . إنك أنت العليم الحكيم .
 قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم : إني أعلم غيب
 السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

ها نحن أولاء نشهد بعين الخيال وباستشراف البصيرة — ما شهدته الملائكة في الملأ
 الأعلى . نشهد طرفاً من ذلك السر الأعظم الذي أودعه الله خليفته : سر المعرفة . سر
 هذا المخلوق الذي يواجه به مجاهيل الطبيعة ومجاهيل الحياة ، السر الذي يفتح له المغاليق
 وينير له الطريق . إنه سر خلقه وسر خلافة ، وسر نموه وارتقائه . إنه سر تكريمه على
 الملائكة الذين يسبحون الله ويقدمونه ، ولا يفتر عن عبادة ربهم ولا يستكبرون .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » . إنه التكريم في أعلى صورته لهذا
 المخلوق البشري الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب ذلك السر
 الأعظم : سر القدرة على المحاولة والاستعلاء . إن ازدواج طبيعته ، والسر الإلهي الكامن
 في كيانه . إن قدرته على أن يغلب دوافع التدمير والفساد ، وأن يُغلب عليها دوافع
 التعمير والصلاح . إن هذه الإرادة التي تجعله يختار طريقه . إن هذه الخصائص كلها
 هي سر هذا التكريم الإلهي العظيم .

«إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين». وهنا تبدى خليقة الشر مجسمة :
 في عصيان الخالق سبحانه ، والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم والاستغلاق
 عن الفهم . . وهنا كذلك ينكشف ميدان المعركة الخالدة . بين خليقة الشر في إبليس
 وخليفة الله في الأرض . المعركة التي يتعاور الحصان فيها النصر والهزيمة ، بمقدار
 ما يستمع ابن آدم إلى صوت الله ، أو يستجيب لنوازع الشر فينساه .

تبدأ المعركة في الجنة التي أسكنها الله آدم وزوجه . . لقد أبيحت لهما كل ثمارها
 وكل متاعها . . إلا شجرة واحدة . . شجرة واحدة لا يقربانها . . شجرة لا يذكر القرآن
 اسمها ولا نوعها — إلا ما يرد في موضع آخر على لسان إبليس ويشعر أنه مجرد الإغواء
 والإغواء — شجرة واحدة ترمز إلى المحذور الذي لا بد منه في حياة البشر . فيغير
 محذور ما لا تنبت الإرادة ولا تقوى ، ولا يتميز الإنسان المريد من الحيوان المنساق .
 فالإرادة هي مفرق الطريق ، والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمية ولو كانوا
 من جنس الإنسان : «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام» .

«وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغداً حيث شئتما ، ولا تقربا
 هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» . . الظالمين لأنفسهم بإرادتها موارد البوار . والظالمين
 لمعنى الإنسانية في الإنسان ، وهو لا يتحقق إلا بالارتفاع على النوازع والشهوات .
 «فأزلهما الشيطان عنها» . . وبالله تعبير المصور المعبر : «أزلهما» إنه لفظ يحمل
 صورة الحركة التي يعبر عنها . وإنك لتكاد تلمحه يزحزحهما عن الجنة ، ويدفع بأقدامهما
 قترل وتهوى ! «فأخرجهما مما كانا فيه» من هذا النعيم المقيم ، الذي لم يصونا عهد
 الله فيه ، ولم يمتنعوا بهبة الإرادة التي وهبها الله لخليفته في الأرض ، ليلوذ بها من
 الضعف والغواية .

عندئذ حقت كلمة الله وصرح قضاؤه : «اهبطوا : بعضكم لبعض عدو ، ولكم
 في الأرض مستقر ومتاع إلى حين» .

ونهض آدم من عثرته ، بما ركب الله في فطرته . وأدركته رحمة الله التي تدركه
 دائماً عندما يشوب إليها ويلوذ بها : «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . إنه هو
 التواب الرحيم» .

وتمت كلمة الله الأخيرة : «اهبطوا منها جميعاً . فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع
 هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب
 النار هم فيها خالدون» .

وانتقلت المعركة الخالدة إلى الأرض ، وانطلقت من عقالها ، ما تهدأ لحظة وما تضع أوزارها . .

وبعد . فلا بد من عودة إلى مطالع هذه القصة : قصة البشرية الأولى .

لقد قال الله تعالى لملائكته : « إني جاعل في الأرض خليفة » . وإذن فأدم خلق للأرض منذ اللحظة الأولى . فقيم إذن كانت تلك الشجرة المحرمة ؟ وقيم إذن كان بلاء آدم ؟ وقيم إذن كان الهبوط إلى الأرض في النهاية ، وهو مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولى ؟

لقد كانت هذه التجربة تربية لهذا الخليفة وإعداداً . كانت إيقاظاً للقوى المذخورة في آدم . كانت تدريباً له على تلقي الغواية ، ومذاق العاقبة ، والتوفز للجولة الثانية . . إن قصة الشجرة المحرمة ، ووسوسة الشرب باللذة ، ونسيان العهد بالطاعة ، والصحو بعد السكر ، والالتجاء إلى رحمة الله في النهاية . . إنها قصة البشرية المكرورة . . لقد شاءت رحمة الله بهذا المخلوق . . أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة استعداداً للمعركة الحقيقية في أرضها وموطنها . .

أفضل التفاسير

سألني أحد الإخوان عن أفضل التفاسير ، وأقرب طرق الفهم لكتاب الله تبارك وتعالى ؛ فكان جوابي على سؤاله هذا هذه الكلمة : « قلبك » . فقلب المؤمن ولا شك هو أفضل التفاسير لكتاب الله تبارك وتعالى . وأقرب طرائق الفهم أن يقرأ القارئ بتدبر وخشوع ، وأن يستلهم الله الرشاد والهدى ، ويجمع شوارد فكره حين التلاوة ، وأن يلم مع ذلك بالسيرة النبوية المطهرة ، ويعنى بنوع خاص بأسباب النزول وارتباطها بمواضعها من هذه السيرة ؛ فيسجد في ذلك أكبر العون على الفهم السليم . . وإذا قرأ في كتب التفسير بعد ذلك فللوقوف على معنى لفظ دقيق عليه ، أو تركيب خفي أمامه معناه ، أو استزادة من ثقافة تعينه على الفهم الصحيح لكتاب الله ؛ فهي مساعدات على الفهم . والفهم بعد ذلك إشراق ينقدح ضوءه في صميم القلب .

السنة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي

(٥)

رمز الصحابة إلى الأمصار طلباً للحديث

انقضى عصر الشيخين والسنة محفوظة في صدور الصحابة غير شائعة الانتشار كثيراً ، لا في الأقطار ؛ لأن عمر رضى الله عنه منع أكثر الصحابة من مغادرة المدينة ، إلا لأفراد اقتضت المصلحة خروجهم ، ولا في المدينة نفسها ؛ لأن سياسته كانت تقوم على توفير العناية بالقرآن ، وتقليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعاً للتزيد فيه ، واحتراساً من الخطأ والوهم في روايته .

فلما كان عهد عثمان سمح للصحابة أن يتفرقوا في الأمصار ، واحتاج الناس إلى الصحابة وخاصة صغارهم ، بعد أن أخذ الكبار يتناقصون يوماً بعد يوم ؛ فاجتهد صغار الصحابة بجمع الحديث من كبارهم ، فكانوا يأخذونه عنهم ، كما كان يرسل بعضهم إلى بعض من أجل طلب الحديث ؛ فقد أخرج البخاري وأحمد والطبراني والبيهقي — واللفظ له — عن جابر بن عبد الله : بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أسمعته منه ؛ فابتعت بعيراً ، فشددت عليه رحلي ، ثم سرت إليه شهراً ، حتى قدمت الشام فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري ، فأتيته فقلت له : حديث بلغني عنك أنك سمعته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم لم أسمعته ؛ فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعته ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس عراة غزلاً بهمماً قلنا وما لهم ، قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم نداء يسمعه من بعد كما يسمعه من قريب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقصها منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى أقصها منه حتى اللطمة ، قلنا كيف ؟ وإنما نأتى الله عراة غزلاً بهما قال بالحسنات والسيئات ^(١) »

وأخرج البيهقي وابن عبد البر عن عطاء بن أبي رباح أن أبا أيوب الأنصاري رحل إلى عقبة بن عامر ، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبق أحد سمعه منه غيره ، فلما قدم أتى منزل مسلة بن مخلد الأنصاري — وهو أمير مصر — فخرج إليه فعانقه ، ثم قال له ما جاء بك يا أبا أيوب ، قال حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستر المؤمن ، فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ستر مؤمناً في الدنيا على كربه ستره الله يوم القيامة » ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة ، فلما أدركته جائزة مسلة إلا بعريش مصر .

وبذلك ابتدأت رواية الحديث تأخذ في السعة والانتشار ، وبدأت الأنظار تتجه بعناية شديدة ، أكثر من ذي قبل ، إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص التابعون على لقيهم ، ونقل ما في صدورهم من علم ، قبل أن ينتقلوا إلى الرقيق الأعلى . ولقد كانت زيارة الصحابي لمدينة من المدن الإسلامية كافية بأن تجمع أهل المدينة كلها حوله ، ويشهد الزحام ساعة وصوله ، وتشير الأصابع أن هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اشتهر عدد من الصحابة بكثرة رواية الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إما لتقديم محبتهم له كعبد الله بن مسعود ، أو لملازمتهم خدمته كأبي مالك ، أو لإحاطتهم بأحواله الداخلية كعائشة ، أو لعنايتهم بحديثه كعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، وأبي هريرة ، رغم صغر الأولين ، وتأخر إسلام الثالث . والناس في كل هذا يأخذون عن الصحابة ، لا يشكّون ولا يترددون ، والصحابة يأخذ بعضهم عن بعض لا يكذب بعضهم بعضاً ولا يتخرجون . ولم يكن قد دُسَّ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو وجد الكذابون ؛ حتى وقعت الفتنة ، فكانت مبدأ تحول في حياة المسلمين الدينية . كما كانت بدء تحول في حياتهم السياسية .

الوضع في الحرب ومني برأ ؟

كانت سنة أربعين من الهجرة هي الحد الفاصل بين صفاء السنة ، وخلوصها من الكذب والوضع ، وبين التزبد فيها ، واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية ، والانقسامات الداخلية ؛ بعد أن اتخذ الخلاف بين علي ومعاوية شكلاً حربياً سالت فيه دماء ، وأزهقت فيه أرواح ، وبعد أن انقسم المسلمون إلى طوائف متعددة ؛ فالجمهور مع علي في خلافه مع معاوية ، والحوارج يتقنون على علي ومعاوية معا ، بعد أن كانوا

من شيعة على المتحمسين ، وفريق من آل البيت أخذوا بعد قتل على رضى الله عنه ، وخلافة معاوية يطياليون بحقهم في الخلافة ، ويشقون عصا الطاعة على الدولة الأموية . وهكذا كانت الأحداث السياسية سببا في انقسام المسلمين إلى أحزاب وشيع . ومن المؤسف أن هذا الانقسام اتخذ شكلا دينيا ، كان له أبلغ الأثر في قيام المذاهب الدينية في الإسلام ؛ فلقد حاول كل حزب أن يؤيد موقفه بالقرآن والسنة ، وطبعى ألا يكونا مع كل حزب يؤيدانه في كل ما يدعى ؛ فكان لابد للأحزاب من أن تتناول القرآن على غير حقيقته ، وأن تحمّل نصوص السنة مالا تتحمّله ، وأن تضع على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تؤيد بها دعواها ، بعد أن عزّ عليها مثل ذلك في القرآن لحفظه ، وتوفر المسلمين على روايته وتلاوته . ومن هنا كان وضع الحديث ، واختلاط الصحيح منه بالموضوع . وأول معنى طرقه الوضع في الحديث هو فضائل الأشخاص ؛ فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة في فضل أئمتهم ، ورؤساء أحزابهم . وأول من فعل ذلك الشيعة على اختلاف طوائفهم ، كما يعترف بذلك ابن أبي الحديد — وهو من علماء الشيعة — في شرح نهج البلاغة إذ يقول : « اعلم أن أصل الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة . . إلخ (١) » ، وقد قابلهم جهلة أهل السنة بالوضع أيضا .

من أى جيل تأس الوضع ؟

ليس من السهل علينا أن نتصور صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم — الذين فدوا الرسول بأرواحهم وأموالهم ، وهجروا في سبيل الإسلام أوطانهم وأقرباءهم ، وامتزج حب الله وخوفه بدمائهم — يقدمون على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما كانت الدواعي لذلك ، بعد أن استفاض عندهم قول جبيهم ومنقذهم صلى الله عليه وسلم : « إن كذبا علىّ ليس ككذب على أحد ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار (٢) » . ولقد دلنا تاريخ الصحابة — في حياة الرسول وبعده — أنهم كانوا على خشية من الله ، وتقى يمنهم من الاقتراء على الله ورسوله ، وأنهم كانوا على حرص شديد على الشريعة وأحكامها ، والذب عنها ، وإبلاغها إلى الناس كما

(١) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣٤ .

(٢) حديث مشهور ادعى بعض العلماء أنه متواتر رواه سبعون صحابيا ، وادعى غيرهم أكثر ، وقد خرجته كتب السنة كلها .

تلقوها عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، يتحملون في سبيل ذلك كل تضحية ، ويخاصمون كل أمير وخليفة ، أو أى رجل يرون فيه انحرافاً عن دين الله ، لا يخشون لوماً ولا موتاً ، ولا أذى ولا اضطهاداً .

هذا عمر يخطب الناس فيقول مرة : «أيها الناس ، لا تغالوا في مهور النساء ، لو كان ذلك مكرمة عند الله لكان أولاً كم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إلخ » فتقوم إليه امرأة فتقول له على مسمع من الصحابة جميعاً : مهلاً يا عمر ، يعطينا الله ، وتحرمنا أنت ؟ أليس يقول الله عز وجل : « فَإِنْ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا . . » فيقول عمر : « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ » . وهاهو يجادل أبا بكر حين صمم على قتال أهل الردة ومانعى الزكاة ، فلا يرى عمر قتالهم أخذاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ » . فيقول أبو بكر ، أليس يقول الرسول : « إِلَّا بِحَقِّهَا » ومن حقها الزكاة . هذا مع أن عمر كان أول من بادر إلى مبايعة أبي بكر يوم السقيفة معترفاً له بالفضل والأولوية . ومع ذلك فلم يمنعه حبه وتقديره له من أن يجادله في أمر يرى أنه الحق ، ويرى أبو بكر خلافه .

وهذا على يخالف عمر في أمره برجم الزانية الحبلى ، وينكر عليه بقوله : « لئن جعل الله لك عليها سبيلاً ، فإنه لم يجعل لك على ما في بطنها سبيلاً » فيرجع عمر ، ويقول : « لولا على لهلك عمر » .

وهذا أبو سعيد ينكر على مروان وإلى المدينة تقديم الخطبة على صلاة العيد ، مبيناً أنه خالف السنة ، وعمل غير ما كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وها هو ابن عمر — كما يروى لنا الذهبي — يقوم — والحجاج يخطب — فيقول : « عدو الله استحل حرم الله ، وخرّب بيت الله ، وقتل أولياء الله » وروى عنه أن الحجاج خطب فقال : إن ابن الزبير بدّل كلام الله ، فقال ابن عمر : كذبت لم يكن ابن الزبير يستطيع أن يبدل كلام الله ، ولا أنت . قال الحجاج : أنت شيخ خرف ، فقال ابن عمر : أما أنك لو عدتَ لعدتُ .

مثل هذه الأخبار ، ومثبات أمثالها قد استفاضت بها كتب التاريخ ، وهى تدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الصحابة كانوا من الجرأة في الحق ، والتفانى في الدفاع عما يعتقدون أنه حق ، ومن تغليبهم الحق على كل صديق وصاحب وقريب ، بحيث يستحيل

عليهم أن يكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم اتباعاً لهوى ، أو رغبة في دنيا ؛ إذ لا يكذب إلا الجبان . كما يستحيل عليهم أن يسكتوا عما يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين لا يسكتون عن اجتهدٍ خاطيء ، يذهب إليه بعضهم بعد فكر وإمعان نظر .

واسمع ما يقوله الصحابة أنفسهم في هذا الموضوع : أخرج البيهقي عن البراء : ليس كلنا كان يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت لنا ضيعة وأشغال ، ولكن كان الناس لا يكذبون فيحدث الشاهد الغائب . وأخرج عن قتادة أن أنساً حدث بحديث ، فقال له رجل أسمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، أو حدثني من لم يكذب ، والله ما كنا نكذب ، ولا كنا ندرى ما الكذب (١) .

لا يبقى بعد هذا شك في أن الكذب لم يكن على عهد رسول الله من الصحابة ، ولا وقع منهم بعده ، وأنهم كانوا محل الثقة فيما بينهم لا يكذب بعضهم بعضاً . وكل ما كان بينهم من خلاف فقهي لا يتعدى اختلاف وجهات النظر في أمر ديني ، وكل منهم يطلب الحق وينشده .

أما عصر التابعين فلا شك أن الكذب كان في عهد كبارهم أقل منه في عهد صغارهم ؛ إذ كان احترام مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعامل التقوى والتدين أقوى في ذلك العصر منه في العصر الثاني . وأيضاً فقد كان الخلاف السياسي في أول عهده ؛ فكانت البواعث على الوضع في الحديث ضيقة بالنسبة للعصور التالية . ويضاف إلى ذلك أن وجود الصحابة وكبار التابعين المشهورين بالعلم والدين ، والعدالة واليقظة من شأنه أن يقضى على الكذابين ، ويفضح نواياهم ومؤامراتهم ، أو أن يحد من نشاطهم في الكذب .

النشريع الجنائي الإسلامي

للاستاذ عبد القادر عودة

(٥)

في عقوبة الزنا

١ - التطور التشريعي لعقوبة الزنا : كانت عقوبة الزنا في صدر الإسلام الحبس في البيوت ، والإيذاء بالتيير أو بالضرب . والأصل في ذلك قوله تعالى : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن للوت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوها فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها إن الله كان توابا رحيم » : النساء ١٥ ، ١٦ .

وقد اختلف الفقهاء في تفسير هذين النصين ؛ فرأى البعض أن النص الأول جاء بحكم النساء فقط ، وليس فيه حكم الرجال ، وأن النص الثاني عطف على النص الأول عطفاً متصلاً بقوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم » فكان هذا حكماً زائداً للرجال مضافاً إلى ما قبله من حكم النساء . وعلى هذا فحكم النساء الزواني كان الحبس في البيوت حتى يمتن ، أو يجعل الله لهن سبيلاً بحكم آخر ، وحكم الرجال الزناة كان الأذى (١) .

ورأى البعض أن النص الأول مبين لعقوبة الثيب ، وأن النص الثاني يبين عقوبة البكر . وحجتهم أن المراد بقوله تعالى : « من نسائكم » الثيب ؛ لأن قوله من نسائكم إضافة زوجية كقوله : « للذين يؤلون من نسائهم » ولا فائدة نعلها في إضافته ههنا إلا اعتبار الثوبة . كذلك فإن النصين قد جاءا بعقوبتين إحداها أغلظ من الأخرى ، فكانت الأغلظ للثيب والأخرى للأبكار كالرجم والجلد (٢) .

وهناك فريق ثالث رأى أن النص الثاني وهو قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم » ناسخ لقوله تعالى : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم » . والقائلون بهذا يحملون قوله عز وجل : « واللذان يأتيانها منكم » على أن المراد به الزاني والزانية (٣) .

ومن المتفق عليه أن هذين النصين نسخا بقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » النور : ٢ ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » .

وقد استقر الحكم بعد ذلك على جلد غير المحصن — وتغريبه مع خلاف في التغريب — وعلى رجم المحصن دون جلده مع خلاف في الجلد ، وستعرض لهذه الخلافات فيما بعد .

وعقوبة الرجم مسّلم بها من جميع المسلمين ، ولا ينكرها إلا طائفة الأزارقة من الخوارج ؛ لأنهم لا يقبلون الأخبار إذا لم تكن في حد التواتر . على أن الرجم ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل : فأما قوله فهو ما ذكرنا « خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا . . . » ، وقوله : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق » . وأما فعله فقد أمر بجرم ماعز ، والغامدية ، ورجم يهوديين زنيا .

ومن المعقول أن يفرق الشارع في العقوبة بين المحصن وغير المحصن ؛ لأن المحصن إذا زنا بعد أن توفرت موانع الزنا لديه كان زناه في غاية القبح ، ووجب أن تكون عقوبته في غاية الشدة .

ونخلص مما سبق أن عقوبة الزنا نوعان : (١) عقوبة البكر (٢) عقوبة المحصن .

في عقوبة البكر

٢ — عقاب البكر الزاني : إذا زنى البكر سواء كان رجلا أو امرأة عوقب بعقوبتين أولاهما الجلد ، والثانية التغريب ؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » .

ويلاحظ أن الشريعة تفرق بين عقوبة الأحرار ، وعقوبة الأرقاء في الزنا ؛ فتخفف عقوبة الرقيق ، وتشدد عقوبة الحر مراعية في ذلك ظروف كل منهما . ولكننا لن نتعرض هنا إلا للعقوبة المقررة للأحرار ، ناظرين في ذلك إلى أن الرق أُلغى في كل أنحاء العالم ، وأن لا حاجة تدعو إلى بيان عقوبة الرقيق .

٣ — عقوبة الجلد : إذا زنى البكر عوقب بالجلد مائة جلدة لقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » النور : ٢ ، ولقول الرسول صلى الله

عليه وسلم « خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » وعقوبة الجلد حدٌّ: أى عقوبة مقدرة ، فليس للقاضى أن ينقص منها ، أو يزيد فيها لأى سبب من الأسباب ، أو ظرف من الظروف ، وليس له أن يوقف تنفيذها أو يستبدل بها غيرها . كما أن ولى الأمر لا يملك شيئاً من ذلك ، ولا يملك العفو عنها كلها أو بعضها وسنكلم عن طريقة الجلد وشروطه عند الكلام على تنفيذ العقوبة .

٤ — التغريب : إدازنى البكر جلد مائة جلدة ، وغرب عاما . والتغريب هو العقوبة الثانية للزاني ، وهو عقوبة مختلف على وجوبها .

فأبو حنيفة وأصحابه يرون أن التغريب ليس واجباً ، ولكنهم يجيزون للامام أن يجمع بين الجلد والتغريب إن رأى فى ذلك مصلحة ؛ فعقوبة التغريب عندهم ليست حداً كالجلد ، وإنما هى عقوبة تعزيرية ، ومن هذا رأى الشيعة الزيدية (١) .

ويرى مالك والشافعى وأحمد وجوب الجمع بين الجلد والتغريب ، ويعتبرون التغريب حداً كالجلد وحجتهم حديث الرسول « البكر بالبكر جلد مائة ، وتغريب عام » ، وما روى عن عمر وعلى أنهما جلدوا وغربا ، ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة فصار إجماعاً (٢) .

ومن هذا رأى الظاهريون ؛ فإنهم يرون التغريب حداً ثابتاً بصريح النص (٣) .

٥ — تغريب المرأة : ويرى مالك أن التغريب جعل للرجل دون المرأة ؛ لأن المرأة تحتاج إلى حفظ وصيانه ، ولأن الأمر لا يخلو إن غربت أن تغرب ومعهما محرم ، أو أن تغرب دون محرم . والأصل أنه لا يجوز أن تغرب دون محرم ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم » ، ولأن تغريبها بغير محرم إغراء لها بالفجور ، وتضييع لها ، وإن غربت بمحرم أفضى إلى تغريب من ليس بزنان ، ونفى من لا ذنب له ، وإن كلفت بحمل أجرته ففى ذلك زيادة على عقوبتها بما لم يرد به الشرع ، وبما لا يمكن أن يحدث مثله للرجل .

(١) بدائع الصنائع ج ٧ ص ٣٩ — شرح فتح القدير ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٦ شرح الأزهار ج ٤ ص ٣٤١

(٢) شرح الزرقانى ثامن ص ٨٣ — المهذب ثانى ص ٢٨٤ — المنى عاشر ص ١٣٣

(٣) المحلى حادى عشر ١٨٣ - ١٨٨

ولهذا يخصص للمالكين الجبر الوارد فى التغريب ، ويجعلونه فى حق الرجل إذ يلزم من العمل بعمومه مخالفة مفهومه ؛ فإنه دل بمفهومه على أنه ليس على الزانى أكثر من العقوبة المذكورة فيه ، ووجوب التغريب على المرأة يلزم منه الزيادة على ذلك . كذلك فإن العمل بعموم النص يؤدي إلى فوات حكمته ؛ لأن الحد وجب زجراً عن الزنا ، وفى تغريبها إغراء به ، وتمكين منه (١) .

ويرى الشافعى وأحمد والظاهرىون أن التغريب عقوبة واجبة على كل من الرجل والمرأة (٢) .

٦ - ماهية التغريب : اختلف الفقهاء فى ماهية التغريب ، فقال مالك وأبو حنيفة إن التغريب معناه الحبس ، فيحبس المغرب فى البلد الذى يغرب إليه مدة لا تزيد على سنة ؛ فالتغريب عند المالكيين والحنفيين معناه الحبس فى بلد آخر ، ومن هذا رأى الزيدون (٣) .

ويرى الشافعى وأحمد أن التغريب معناه النفي من البلد الذى حدث فيه الزنا إلى بلد آخر ، على أن يراقب المغرب بحيث يحفظ بالمراقبة فى البلد الذى غرب إليه ، ولا يحبس فيه ؛ فالتغريب عند الشافعيين والحنابلة هو الوضع تحت المراقبة فى بلد آخر (٤) ، ومن هذا رأى الظاهريون (٥) .

ويشترط بعض الفقهاء فى التغريب أن يكون لمسافة لا تقل عن مسافة القصر ، ويرى البعض أن يكون النفي من عمل الحاكم إلى عمل غيره ، دون التقيد بمسافة معينة ؛ فلو نفي إلى قرية تبعد عن محل الحادث ميلاً لكفى ، كما يجوز أن ينفي من مصر إلى مصر ؛ لأن النفي ورد مطلقاً فتناول أقل ما يقع عليه الاسم (٦) .

(١) شرح الزرقانى ثامن من ٨٣ - المغنى عاشر من ١٣٣

(٢) أسنى المطالب رابع من ١٢٩ - المغنى عاشر من ١٣٤ - المحلى حادى عشر من ٣٣٢

(٣) شرح الزرقانى ثامن من ٨٣ - شرح فتح القدير رابع من ٢٧٠ - حاشية ابن عابدين

ثالث من ٢٠٣

(٤) أسنى المطالب رابع من ١٣٠ - المغنى عاشر من ١٣٦

(٥) المحلى حادى عشر ١٨٢ وما بعدها .

(٦) أسنى المطالب رابع من ١٣٠ - المهذب ثان من ٢٨٨ - المغنى عاشر من ١٣٦

والمقصود من المراقبة أن يمنع الزانى من العودة إلى بلده قبل انتهاء المدة، أو إلى ما دون مسافة القصر على رأى البعض . ويرى البعض أن المراقبة مقصود بها إلزام المغرب بالإقامة في البلد المغرب إليه ؛ فلا يمكن من الضرب في الأرض (١) . ويرى الشافعيون أنه إذا خيف رجوع الزانى إلى البلد الذى غرب منه جاز حبسه (٢) . وإذا رجع المغرب إلى بلده أعيد تغريبه ، ولكنهم يرون أن تستأنف المدة ليتوالى الإيجاش ، وحتى لا تفرق السنة (٣) . أما الحنابلة فيرون أن يبنى على المدة السابقة ، فيعاد تغريبه ليكمل ما بقى من الحول (٤) .

وإذا زنى المغرب في البلد الذى غرب إليه جلد ، وغرب إلى بلد آخر ، ودخلت المدة الباقية من التغريب الأول في مدة التغريب الثانية ؛ لتجانس الحدين . وهذا متفق عليه بين مالك والشافعى وأحمد ، ولكن الظاهريين يرون أن تستتم مدة التغريب الأولى ، ثم يبدأ في الثانية (٥) ؛ لأن القاعدة عندهم أن ما وجب من حد لا يجزى عنه حد آخر . وإذا زنى الغريب غرب إلى غير بلده ، وإذا زنى في البلد الذى غرب إليه غرب إلى بلد آخر غير الذى غرب منه . ويرى بعض المالكيين أن سجن الغريب في البلد الذى زنى فيها يعتبر تغريباً له ، ولكن الشافعيين والحنابلة يشترطون أن يغرب عنها (٦) .

والشافعيون يرون أن سجن الغريب في البلد الذى غرب منه يعتبر تغريباً له ، ولكن المالكيين يشترطون أن يغرب عنها (٦) .

-
- (١) أسنى المطالب رابع من ١٣٠
 (٢) أسنى المطالب ج ٤ من ١٣٠
 (٣) المرجع السابق
 (٤) الأقناع ج ٤ من ٢٥٢
 (٥) شرح الزرقاني ثامن من ٨١ — أسنى المطالب ج ٤ من ١٣٠ — الإقناع ج ٤ من ٢٥٢
 المحلى ج ١١ من ١٣٤
 (٦) المراجع السابقة .

في لفقه الإسلامى

العقود والشروط بين التقييد والحرية

للدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية المساعد بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

تكلمنا في العدد الماضى ، فى هذا البحث ، عن المبدأين العامين : مبدأ التقييد الذى أخذ به الظاهرية ، ومبدأ الإباحة الذى اختاره ابن تيمية . واليوم تم البحث بالكلام عن المذاهب الأخرى التى تجيء فى الوسط بين هذين المذهبين المتعارضين إلى أبعد الحدود ؛ نغنى مذهب الأحناف الذى لا يبعد منه مذهب الشافعية ، ومذهب الحنابلة — وبخاصة ابن تيمية — الذى يقرب منه مذهب المالكية .

٩ — للعرف فى التشريع منزلة كبيرة عند الحنفية ، حتى إنهم يجعلون الثابت به كالثابت بالنص ؛ لأن ما ثبت به يكون معتمداً بلا ريب على دليل شرعى ، وهم فى هذا يعتمدون على هذا الأثر المروى عن ابن مسعود ، والذى يراه الإمام أحمد حديثاً ، ورواه فى مسنده : « ما رآه المسلمون حسناً ، فهو عند الله حسن » . كما قال قائلهم فى ذلك :

والعرف فى الشرع له اعتبار لذا ، عليه الحكم قد يُدار

ومن أجل ذلك نراهم يجعلون العرف العام : أى الذى لا يختص ببلد دون آخر ، يصح أن يعارض أدلة الفقه الأخرى . ولهذا أيضاً ، يرون أن الشرع يقر ما يقره العرف ، إلا إذا كان هناك نص يخالفه . ومن ثمَّ أجازوا كثيراً من العقود والشروط التى لا تشهد لها نصوص الشريعة .

وفى هذا يقول العلامة ابن عابدين : « إن المسائل الفقهية ، إما أن تكون ثابتة بالنص (وهى لا يعتبر العرف إذا لا يجوز أن يخالف النص) ، وإما أن تكون ثابتة بضرب اجتهاد ورأى . وكثير منها يبينه المجتهد على ما كان فى عرف زمانه ، بحيث لو كان فى زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قال أولاً . ولهذا ، قالوا فى شروط الاجتهاد إنه لا بد من معرفة عادات الناس ، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف

الزمان ؛ لتغير عرف أهله ، أو لحدوث ضرورة ، أو فساد أهل الزمان بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولاً للزم المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبينة على التخفيف والتيسير ، ودفع الضرر والفساد ... ولهذا ، نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد في مواضع كثيرة بناها على ما كان في زمنه ؛ لعلمهم بأنه لو كان في زمنهم لقال ما قالوا أخذاً من قواعد مذهبه .

« فمن ذلك ، إفتاؤهم بجواز الاستئجار على تعليم القرآن ونحوه ؛ لانتقطاع عطايا المعلمين التي كانت في الصدر الأول . ولو اشتغل المعلمون بالتعليم بلا أجره لضاعوا وضاع عيالهم ، ولو اشتغلوا بالاكتساب من حرفة وصناعة لضاع القرآن والدين ؛ فأفتوا بأخذ الأجرة عليه ، وكذا على الإمامة والآذان ، مع أن ذلك مخالف لما اتفق عليه أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد من عدم جواز هذا الاستئجار وأخذ الأجرة عليه » (١) ثم يقول بعد ذلك : « فهذا كله وأمثاله ، دلائل واضحة على أن المفتي ليس له الجلود على المنقول في كتب ظاهر الرواية ، وإلا يضيع حقوقاً كثيرة ، ويكون ضرره أعظم من نفعه » (٢)

١٠ — بهذه القاعدة ، اعتبار العرف دليلاً شرعياً ما لم يخالف النص ، وسع الأحناف كثيراً في العقود والشروط ؛ حتى لم يمكن القول بأن كثيراً من العقود التي يعرفها عصرنا الحاضر ، يقرها مذهب الأحناف ، ما دامت لا تعارض نصاً من نصوص الشريعة .

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه فرق كبير بين الشريعة والفقه : الأولى تنزيل من رب العالمين ، والثاني عمل رجال مجتهدين ، فلنا أن نأخذ وندع بما قالوا ورأوا .

١١ — وفي ناحية الشروط بخاصة ، نجد الأحناف يقسمون الشروط التي تقترن بالعقود إلى : شروط صحيحة ، وشروط فاسدة ، وأخرى باطلة .

(١) فالشروط الصحيح ما كان موافقاً لمقتضى العقد ؛ كشرط البائع تسلم الثمن قبل تسليم البائع ، أو مؤكداً لهذا المقتضى كشرطه رهناً بالثمن المؤجل ، أو أذن به الشارع كشرط الخيار له أو للشترى مدة معينة ، أو جرى به العرف كشراء (راديو) على أن يتعهد البائع بالإصلاح مدة معروفة .

(١) رسائل ابن عابدين طبعة الإستانة ج ٢ : ١٢٥ — ١٢٦

(٢) رسائل ابن عابدين ج ٢ : ١٣١

وحكم العقد مع الشروط الصحيحة أن يكون صحيحاً ، وأن يكون الشرط ملزماً يجب الوفاء به ؛ لأن مشروطه لم يرض بالتعاقد إلا على أساسه .

(ب) والشرط الفاسد ما لم يكن شيئاً من هذا كله ، ولكن يكون في اشتراطه منفعة لأحد المتعاقدين أو لشخص آخر ؛ مثل أن يبيع داراً على أن يظل مقبلاً بها شهراً أو اثنين مثلاً ، أو شرط الزوجة ألا يخرجها الزوج من دار أهلها ، أو يشترط الزوج أن تترك عملها إن كانت موظفة ، أو كشرط بائع أرض زراعية على أن يظل المستأجر بها لآخر العام .

وهذه الشروط إن وجدت في عقد مالى ، كالبيع والإجارة مثلاً أفسدته ، وإن وجدت في عقد آخر ، مثل عقود التبرعات والتأمينات والزواج ، يبطل الشرط ويصح العقد ؛ لأن التعادل في العقود المالية مطلوب بين طرفي العقد (١) .

(ج) أما الشرط الباطل ، فهو ما لم يتحقق فيه شيء مما يجب أن يتحقق في الشرط الصحيح ، ولم يكن مع هذا فيه مصلحة لأحد ما ؛ كالذى يبيع داراً على أن لا يسكنها أحد شهراً كل عام ، أو سيارة على أن لا يستعملها أحد يوماً كل أسبوع .
وحكم الشرط الباطل أنه يعتبر لغواً لا اعتبار له ، ويكون العقد صحيحاً ، سواء كان عقد معاوضة أو غيره .

١٢ — على أن عبد الله بن شبرمة (كان قاضى الكوفة ، وفقهياً دينياً وتوفى عام ١٤٤ هـ) ذهب إلى أن كل العقود التي اقترنت بها شرط من التي نسميها شروطاً فاسدة ، تكون صحيحة هي وهذه الشروط ، لا فرق بين عقود المعاوضات المالية وغيرها (٢) .

وبجانب ابن شبرمة ، نجد محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى التوفى عام ١٤٨ هـ ، قد ذهب إلى أن هذه الشروط لا تؤثر في العقد مطلقاً ، عقد معاوضة أو غيره ؛ فتبطل هي ويكون العقد صحيحاً . وبطلانها هو موضع الخلاف بينه وبين معاصره ابن شبرمة .

١٣ — وقد يشهد بصحة ما ذهب إليه هذان الفقهاء : أى أن الشرط الفاسد لا يبطل العقد ، وإن كان عقد معاوضة ، ما رواه البخارى ومسلم من أن جابراً

(١) راجع مثلاً نظرية العقد لابن تيمية ص ٢١٥

(٢) راجع باب الشروط في البيع من فتاوى قاضىخان .

ابن عبد الله باع الرسول جملا له، واشترط حملانه عليه إلى أهله، فرضى الرسول بالشرط وأقره عليه، ودفع الثمن له (١). فإن اشتراط البائع ركوب الحمل حتى يصل إلى أهله شرط لا يقتضيه العقد فيكون فاسداً؛ لأن مقتضى العقد أن يملك المشتري ما اشتراه بلا قيد.

هكذا، يقول بعض الكاتبيين، استدلالاً لما ذهب إليه من يصح عقود المعاوضة مع الشروط الفاسدة. ولكن لماذا لا نقول إن هذا شرط صحيح، وإن كان فيه منفعة لأحد المتعاقدين؛ لأن الشارع — وهو الرسول صلى الله عليه وسلم هنا — قد أذن به، وإن كان مخالفاً لمقتضى العقد ولم يجز به العرف؟ لنا أن نقول هذا. وإذاً يكون كل من العقد والشرط صحيحاً بلا ريب.

١٤ — وأخيراً، نصل إلى الكلام على مذهب الحنابلة وبخاصة ابن تيمية، وقد تركنا عامدين الكلام على مذهب الشافعية لقربه من الحنفية، ومذهب المالكية لقربه من الحنابلة، كما ذكرنا من قبل، على أنه قد يجيء الكلام عَرَضاً عنهما أيضاً أثناء الحديث عن الحنابلة.

يجوز الحنابلة من العقود والشروط ما لم يجز غيرهم، ومن ذلك اشتراط المشتري صفة معينة في المبيع، أو اشتراط بائع السيارة مثلاً الانتفاع بها مدة معلومة، واشتراط الزوجة ألا يتزوج زوجها عليها... إلخ. فهذه الشروط صحيحة يجب على من التزمها الوفاء بها، لا فرق في ذلك بين عقد وعقد، حتى الزواج. وبكلمة واحدة، الحنابلة يجيزون كل شرط إلا في حالتيين: (أ) أن يكون الشرط مخالفاً لمقتضى العقد والغرض منه. (ب) أن يكون الشرط مخالفاً لحكم الله ورسوله.

إن الشرط في الحالة الأولى يمنع أحد المتعاقدين من استعمال ما يثبت العقد له من حقوق؛ مثل أن يبيع أحد داره على أن يقفها المشتري على جهة ما، أو على ألا يبيعها مطلقاً، أو بشرط أن يسكن فيها بنفسه فلا يؤجرها للغير. إلا أن هذا الضرب من الشروط وإن كان فاسداً، لا يفسد العقد، بل يعتبر الشرط لاغياً، والعقد صحيحاً. وهنا الفرق بين الحنابلة وبين الأحناف (٢).

(١) الأولاد والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، لمحمد فؤاد عبد الباقي، طبع الحلبي سنة ١٩٤٩

ج ٢ : ١٧٧ - ١٧٨

(٢) كشف القناع لابن إدريس الحنبلي ج ٢ : ٤٠ - منتهى الإرادات لابن يونس البهوتي

ج ٢ : ٢٥ - ٢٦

لكن الشرط في الحالة الثانية ، أى حالة مخالفته لحكم الله ورسوله ، يكون فاسدا ويُفسد العقد أيضا . وذلك مثل إذا اقتضى الشرط أن يجمع المتعاقدان صفتين في صفقة واحدة ؛ كأن يشترط المقرض أن يشتري المقرض بالمال الذي يقتضيه منه شيئا من الأشياء ، وكأن يُسلف تاجر قطن مبلغا من المال لمزارع على أن يبيع ما يجنيه من القطن له ، لا لغيره .

مثل هذا الضرب الثاني من الشروط يفسد العقود التي ترد فيها^(١) ؛ لأن الرسول نهى عن صفتين في صفقة ، ولأنها تؤدي للنزاع غالبا بين المتعاقدين ، ولأن في بعضها شبهة الربا في صورة قرض جرّ نفعا . على أننا لا ندرى لم لا يصح كل ذلك إذا لم يؤد إلى نزاع ، ولم يكن فيه شبهة الربا !

١٥ — هذا عن الحنابلة بصفة عامة ، أما ابن تيمية بخاصة فهو أوسع صدرا للعقود والشروط معاً . إنه يحيز كل عقد وشرط لم يحرمه الله ورسوله ، ولا يستثنى في هذا . وسندكر بعض تطبيقاته لهذا الأصل . ويقول هو ، ومن يوافقه في هذا الأصل بقول الرسول : « المسلمون عند شروطهم ، إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرمّ حلالاً » ، وبقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » . ولكن علينا قبل ذكر هذا ، أن نبين كيف يستدل ابن تيمية بالنقل والعقل للمذهب الذي ذهب إليه .

إنه يقول : « إن الأصل في العقود والشروط الجواز والصحة ، ولا يحرم ، أو يبطل منها إلا ما دل على تحريمه ، أو إبطاله نص أو قياس عند من يقول به ، وأصول أحمد رضى الله عنه المنصوصة عنه تجرى أكثرها على هذا القول ، ومالك قريب منه ؛ لكن أحمد أكثر تصحيحاً للشروط ، فليس في الفقهاء الأربعة أكثر تصحيحاً للشروط منه »^(٢) .

ومعنى هذا ، أن ما يعقده الناس من عقود ، وما يلتزمونه من شروط ، ليس لنا أن نقول بتحريمه إلا إذا ورد الشارع بذلك ، لأنه لا يصح إلا إذا ورد منه حله^(٣) .

وبعد هذا الأصل العام ، نرى ابن تيمية يسوق الكلام (ص ٣٢٩ وما بعدها

(١) كشاف القناع ج ٢ : ٣٩ — ٤٠ ، منتهى الإزادات ج ٢ : ٢٥ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ج ٣ : ٣٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٣٨ .

من ج ٣ من فتاويه) إلى الاستدلال عليه من آيات الكتاب ، وأحاديث الرسول ، ونظر العقل ، فساق من الآيات والأحاديث ما سبق ذكر شيء منه .

١٦ — وأما الاستدلال على مذهبه من ناحية العقل ، فإنه يقول فيه : « إن العقود والشروط من باب الأفعال العادية (أى ليست من العبادات) والأصل فيها عدم التحريم ، فيُستصحب عدم التحريم فيها حتى يدل دليل على التحريم . كما أن الأعيان (كالمطعمات والمشروبات) الأصل فيها عدم التحريم ، وقوله تعالى : « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » عام في الأعيان والأفعال ، وإذا لم تكن حراما لم تكن فاسدة ؛ لأن الفساد إنما ينشأ عن التحريم ، وإذا لم تكن فاسدة كانت صحيحة (١) .

ثم يخلص مما تقدم إلى هذه النتيجة ، وهي إننا إن حرّمنا ما يجرى بين الناس في المعاملات العادية من عقود وشروط ، بغير دليل من الشارع ، كنا قد حرّمنا ما لم يحرمه الله . لكن الأمر ليس كذلك في العقود غير العادية ، أى في التي فيها ما يخالف حكم الله ورسوله ؛ كأن يعير سيد أمته لآخر يستمتع بها كما يعيره شيئا من متاعه ، فإن هذا طبعاً حرام لا يجوز (٢) .

والآن ، وقد ظهر — بالنقل والعقل — أنه لا يحرم من العقود والشروط عامة إلا ما حرّمه الشارع ، فالوفاء بها واجب عقلاً وشرعاً كذلك ، وبخاصة والوفاء بما يلتزمه الإنسان راضياً مختاراً من الواجبات التي تضافرت الملل والعقول على القول بها .

وأيضاً ، حين يقول الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » نجده — كما يذكر ابن تيمية — لم يشترط في التجارة إلا التراضي ، وذلك يقتضي أن التراضي هو المباح للتجارة . وإذا كان كذلك ، فإذا تراضى المتعاقدان على شيء يكون حلالاً بدلالة القرآن ، إلا أن يكون ما تراضيا عليه مما حرّمه الله ورسوله كالتجارة في الحمر ونحو ذلك (٣) .

١٧ — من ذلك كله نرى أن ابن تيمية يصحح كل العقود والشروط التي تجرى بين الناس في المعاملات العادية ، إلا ما يكون معارضا لحكم الله والرسول ، أو يكون شرطاً يتعارض مع المقصود من العقد .

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٣ ص ٣٣٤ .

(٢) نفسه ص ٣٣٠ .

(٣) الفتاوى ج ٣ : ٣٣٦ — ٣٣٧ .

فالأول لقول الرسول : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » . وذلك مثل أن يشترط أحد المتعاقدين في شراء جارية أو عبد أن يكون نسب الولد لغير أبيه ، أو أن يكون الولاء إذا صار العبد حرّاً لغير من أعتقه . وهذا وذاك ، لأن الله يقول : « ادعواهم لآبائهم » ورسوله يقول : « الولاء لمن أعتق » ؛ ردّاً على ما كان عليه الأمر في الجاهلية من انتساب الرجل لغير أبيه ، وتولى العبد متى صار حرّاً غير مواله^(١) .

وأما الضرب الثاني : أي الشرط المنافي للمقصود من العقد ، مثل أن يشترط البائع على المشتري ألا ينتفع بما اشترى يبيع أو تأجير ، فيكون باطلاً ؛ لأنه جمع بين المتناقضين ، أي بين إثبات المقصود من العقد ونفيه ، فلا يحصل شيء^(٢) .

١٨ — في غير هاتين الحالتين ، يكون كل من العقد والشرط صحيحاً ؛ سواء في ذلك عقود المعاوضات ، والتبرعات ، والتوثيقات أو التأمينات ، والزواج ، ونحو ذلك كله . وسواء كان الشرط استثناء منفعة في العقود عليه ، أو طلب صفة يصح قصدها في المبيع أو الزوج أو الزوجة ، أو غير هذا وذاك من الشروط . في كل ذلك ، يكون العقد صحيحاً ، والشرط لازماً يجب الوفاء به ؛ وإلا كان للطرف الآخر حق فسخ العقد ؛ لأنه ما رضى عقده إلا بالشروط التي اشترطها ، ومبنى العقود بصفة أساسية على الرضى ، كما هو معروف مقرر

١٩ — وإذا قال الأحناف بأن لعقد الزواج من الخطورة والقداسة ما لا يجعله يقبل الفسخ لفوات بعض ما اشترطه الزوج أو الزوجة ، يقول ابن تيمية بأنه بسبب هذا يجب أن يقبل الفسخ ؛ لأن الأسرة والحياة القارة الهنيئة بين الزوجين لا تتوفر إلا إذا رضى كل منهما عن الآخر ، بأن وجد فيه كل ما رغب من شروط يصح قصدها وطلبها .

من الحق إن إلزام أحد طرفي العقد بصحة العقد ولزومه ، مع فوات ما شرط من شروط يصح قصدها ، ولها فائدتها وقيمتها ، يعتبر إلزاماً له بما لم يلتزمه وبما لم يرض به ، بل بما لم يلتزم به الله ورسوله . والمسلم لا يلتزم شيء إلا بالتزامه كما في العقود ، أو بإلزام الله ورسوله كما يقول ابن تيمية .

(١) نظرية العقد ص ١٤ — ١٥ .

(٢) الفتاوى ج ٣ : ٣٣٧ .

٢٠ — وما أحسن وأحكم وأوجز هذه العبارة التي نقلها بنصها عنه ، لتكون خاتمة مذهبه في العقود ، ما يصح منها وما لا يصح ، وفيما يجوز أو لا يجوز اشتراطه من الشروط ، وهي :

« ومقاصد العقلاء إذا أُدخلت في العقود ، وكانت من الصلاح الذي هو المقصود لم تذهب عفواً ، ولم تهدر رأساً ؛ كالأجال في الأعواض ، ونقود الأثمان المعينة ببعض البلدان ، والصفات في المبيعات ، والحرفة المشروطة في أحد الزوجين ، وقد تفيد الشروط ما لا يفيد الإطلاق ، بل ما يخالف الإطلاق » .

وبعد : فإننا نتقدم بحق — بعدما تقدم — أن ما ذهب إليه ابن تيمية في هذه المسألة ، فيه توسعة جدّ كبيرة على الناس في المعاملات ، وفيه ما يساعد على أن نجد في الفقه الإسلامي حلولاً لكثير من المشاكل والمسائل التي تجد كل يوم في علاقات الناس بعضهم مع بعض ، في سائر النواحي ، ومنها العقود على اختلافها . والله الهادي إلى سواء السبيل .



الناس ثلاثة

١ — غافل : لم يدرك سرّ وجوده ، ولم يدرك الغاية من حياته ؛ فهو بلا قلب ، وبلا عقل ، وبلا أثر . حتى كُتبت ، وموجود كمنفود « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام ، بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون » .

٢ — ومخطيء : التبست عليه المسالك ، واشتبهت أمامه السبل ؛ فضل الطريق وظن الغاية من الحياة لذة عاجلة ، ومثعة فانية ، وشهوة زائلة ، وكأساً مترعة ، وامرأة وضیئة ، ثم ولا شيء بعد ذلك « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، والحيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الدنيا . والله عنده حسن المآب » .

٣ — وعارف : انقشعت عن نفسه سحائب الوهم ، وأشرقت في حنايا فؤاده أضواء الفهم ؛ فعرف ربه ، وعرف نفسه ، وأدرك سرّ حياته ؛ فجعل الله غايته ، والرسول قدوته ، والقرآن شرعته ، والجهاد وسيلته ، والموت في سبيل الله أمنيته « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » .

محمّد البنا

استغلال الأرض في الإسلام

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة في باكستان

(٤)

روح التشريع وحكمته :

الأرجح عندنا أن للفرد أن يملك الأرض الزراعية . وذلك لا شك استغلال لرأس المال ، ولكن ليس له قطعاً أن يكرهها ؛ ذلك لأن كراء الأرض لا يتعدى أن يتقاضى المالك جُعلاً ثابتاً في أمد معين . نظير تمكين المزارع من أرضه ليفلحها ويستنتجها . أو بعبارة أخرى إنما الكراء في الأرض إعطاء المالك أرضه — أو رأس ماله — إلى من هو في حاجة إليه ليستغله ويكتسب — إن استطاع — من وراء هذا الاستغلال ، وذلك نظير أجر ثابت يتقاضاه صاحب رأس المال . وهذا مخالف للإسلام في أحكامه العامة والخاصة ؛ إذ لا يعدو أن يكون شكلاً من أشكال الإقراض بفائدة . ولعمري أن اشتراط كراء الأرض نظير مبلغ معين من ذهب أو فضة فهو أمعن في الخطأ ، وأقمن بالحكم بالتحريم لا بالتحليل ، وأبعد ما يكون عن منطق الإسلام السليم ، وجدير ألا يكون صادراً عن الرسول عليه السلام ؛ إذ كيف يأتي أن تؤجر الأرض بجزء مما يخرج منها ، ثم يرضى أن يدفع المؤاجر لصاحبها حصة معينة من ذهب أو فضة ؟

القاعدة الإسلامية العامة في مثل هذه المعاملات ألا يعيش الفرد من عمل غيره نظراً لانتفاء العدالة ، وانتفاض المساواة بين أفراد المجتمع الذي وصفه مؤسسه عليه السلام بأنه كالبنيان الواحد ، الواجب إذن — إذا ما طبقنا القواعد الإسلامية — أن يثاب الفرد بعمله : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ، « أولئك لهم نصيب مما كسبوا » . هذه القاعدة أقرب ما تكون إلى البديهة . ونحن نردفها هنا بمسألة أخرى : هي أن الإسلام حرص أشد الحرص على أن يكون أفراد المجتمع كلهم عاملين منتجين ، لا ينقطع لهم عمل أو إنتاج ؛ فذلك دليل الحيوية وسر النهوض والارتقاء . وحكمة ثالثة تعيننا على فهم روح التشريع الإسلامي وحكمته إزاء استغلال الأرض خاصة ، ورؤوس الأموال عموماً : هي النهي الصريح القاطع عن وجود طبقات متبايزة متنازعة متحاسدة متنافرة

في المجتمع الإسلامي الصحيح . وليس المقصود بعدم التمايز هنا وجوب تحقيق المساواة المادية مساواة مطلقة بين الأفراد . فذلك فوق أنه منصوص على نقيضه في القرآن فهو مخالفة لفطرة الناس وتفاوتهم ، ذلك التفاوت الذي لا يتصور العمران بدونه ؛ إنما يقصد الإسلام بنهيه عن وجود الطبقات التمايزة إلى أن تكون الأمة كلها متساندة متفقة المصالح ، ما يضر جماعة منها يضر الكل في الصميم . كما أن الإسلام بهذا المبدأ لا يقبل أن يكون تفاوت الرزق سبباً لاستعلاء طائفة على طائفة أخرى ؛ إذ أن المقياس المادي لا يجب بحال من الأحوال أن يكون معياراً توزن به أقدار الناس ومكاناتهم .

ولئن كان عصرنا الحالي قد فرض ذلك الميزان على بعض البلاد ، فصار الأصلح هو الأغنى ، فإنما ذلك تدليل مردود ، وأمر موجب للأسف ؛ إذ تُعزَى إليه أغلب أسباب القوضى الاجتماعية ، والتناحر البشري ، والانقلاب الفكري التي نشاهدها في هذا العصر .

هذه السكليات الثلاث : نصيب المرء على قدر عمله (لا ملكيته) ، وضرورة بذل الجهود الفردية ، وعدم وجود الطبقات الاجتماعية ، تبدى لنا حكمة التشريع ، ورأى الإسلام في الملكية واستغلال الثروات . تفصيل ذلك أن الملكية وحدها لا تغني أكثر من إعطاء المالك حقوقاً على ما يمتلك ، ولكنها لا تغني قطعاً ضمان الرزق للمالك ؛ لأن الثروة المملوكة عقيمة دون عمل ، لن تدر على مالكها رزقاً ما لم يبذل فيها عملاً . ومن هنا لم يجز أن ينام المالك عن ملكيته التي يتعهدا غيره بالاستثمار والاستغلال ، ثم ينال المالك نظير ذلك جزءاً موفوراً ذهباً أو ورقاً .

قد يذهب البعض إلى أن هذه القاعدة العامة تتضمن بعض التناقض إذا خرجنا من التعميم إلى التخصيص ، إذ ما بالناس نسمح لصاحب الدار أو الآلة أن يؤجر داره أو آله ، ولا نسمح لصاحب الأرض بمثله ؟ جواب ذلك يسير . فالدار والآلة كلتاها سلعة استهلاكية ، وإن كان استهلاكهما طويلاً المدى ، وسيأتي وقت بعد أم قصر يضجحان فيه أثراً بعد عين . واستغلالهما هو بدون شك استغلال لمنفعتيهما ، يستلزم بحكم الضرورة استهلاكاً للعين ذاتها ، وصاحب الآلة أو المنزل عليه دوماً أن يعمل على صيانتها وترميمها ، وحفظهما من التلف الذي لا يمكن تلافيه كلية سواء استعمل أم أهمل . ذلك أن طبيعة الأشياء الاستهلاكية أن تغنى باستعمالها ؛ فمالكها مجبر على اقتضاء ثمنها (أو اقتضاء ثمن منفعتها حالة تأجيرها) وإلا استهلكته ، فاستهلك رأس المال المستغل فيها دون مقابل للجهد المبذول في إنشائها أو صناعتها ، وبعبارة أخرى مثل هذه السلع الاستهلاكية ، إنما تنشأ أو تصنع حتى يستفيد صاحبها من استثمار عمله فيها . وظاهر أن

وضع الأرض مخالف تماماً لمثل هذه السلع ؛ فهي ليست استهلاكية ، ولا تفتى بحكم الاستغلال والاستثمار ، كما أنها ليست (أو على الأقل ليس أغلبها) من عمل الناس وإنشائهم ، ولكنها كما سبق القول من عمل الطبيعة ، ومواهب الخالق تبارك وتعالى .

هنا يعرض سؤال آخر : إذ لو قلنا بهذا فما حكم مالك الدار أو الآلة الذي يرزق من تأجير آله أو داره ، ولا يقوم بعمل آخر ؟ هذا عندنا رزق حلال ؛ إذ هو أجر لاحق لعمل سابق ، وهذا الأجر لن يستمر أبداً بل سينتهي بانتهاء الدار أو الآلة . وحينئذ عليه أن يعمل من جديد ليبنى داراً أخرى أو يصنع آلة ثانية . وقياس هذا الوضع بصاحب الأرض يتن الاختلاف ، ومع هذا فإن لنا تحفظاً على إجازة هذا التحليل ، إذ المجتمع الإسلامي السليم الكامل لا يكاد يسمح لبعض الأفراد أن يعيش من أهون السبل بمثل هذا الاستغلال ؛ لأن من حق الفرد على الدولة أن تؤمن له مسكنه ضمن واجباتها نحوه في تأمين ضرورات حياته (مثل المسكن والمأكل والمشرب والعلاج والتعليم والمساواة في الفرص أو حق العمل) . من أجل هذا كان إجمال وجود طبقة من الملاك (غير الزراعيين) بعيداً كل البعد في المجتمع الإسلامي ، فإن وجدت مثل هذه الطبقة لحل في البنيان الاجتماعي ، فذلك خطأ التطبيق وليس خطأ التشريع . وعلى أية حال فالإسلام لا يبيح عموماً (القعود عن طلب الرزق) ولا يقر أن يتحكم بعض الناس في البعض الآخر ، أو أن توجد طبقة من الناس متميزة عن سائر الطبقات . لذلك كان تملك السلع الإنتاجية أو الاستهلاكية مباحاً بشرط ، وشرطه ما أسلفنا من تحفظات .

للفرد إذن أن يملك ما شاء من رؤوس الأموال الثابتة والمتنقلة ، بما في ذلك الأرض ؛ لأن الملكية الفردية ، وإن لم تكن عندنا غريزة أصلية في الإنسان ، إلا أنها من مستلزمات تميز الشخصية ، كما هي من مقومات حسن الاستغلال والاستثمار ، ولئن أباح الإسلام الملكية الفردية بشكل تام ، إلا أننا نجد أن هذه الإباحة مخوفة بكثير من القيود والتحفظات ، حتى إن الممعن في دراسة روح التشريع ليردد طويلاً قبل أن يقتنع بهذه الإباحة . والعلة في هذا راجعة إلى أن المشرع يخشى دائماً طغيان الفرد إن استأثر بحجز كبير من الثروة المادية : « إن الإنسان لطيفي ، أن رآه استغنى » ، وليس معنى هذا أن الإسلام يفضل حياة الفقر للأفراد على حياة الغنى ، إنما المقصود ألا تتسع الهوة بين دخول الأفراد ؛ إذ كثيراً ما يغرى هذا بتحكم الأغنياء في الفقراء عن طريق الاحتكار الفعلي والاستعلاء المادي ، وألا توجد طبقات متضاربة المصالح والغايات . نستخلص من هذا أن القيود الواردة على الملكية عامة يمكن أن تلخص فيما يلي : —

(أ) عدم الاحتكار ، وقد تهي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد النهي .
(ب) ألا تقعد الملكية بصاحبها عن العمل ؛ وكل ملكية تؤدي إلى البطالة فهي غير جائزة شرعا .

(ج) ألا تكون الملكية سبباً لوجود طبقات من الناس متميزة في الحياة الاجتماعية مظهراً ، وألا تؤدي إلى تمتع طبقة الملاك بحقوق عامة لا يتيسر لغيرهم من الناس أن يستمتعوا بها . وبعبارة أخرى ألا تكون الملكية معياراً تقاس به أقدار الناس ومنازلهم ؛ فيعظم من يملك ، ويحقر من أفقرت يداه .

هذه القيود تبدو — ولا شك — قاسية لأنصار المدرسة الاقتصادية الحرة ، أو ما يرمز إليهم أحياناً (بالكلاسيك) . كما أن الاشتراكيين قد يعتبرونها مرادفاً لتدخل الدولة تدخلا متغلغلا لا مناص منه ؛ إذ المعلوم أن من أكبر حججهم التي يناقضون بها الرأسماليين أن الحرية الاقتصادية لا بد أن تؤدي إلى نوع من الاحتكار الفعلي للرأسماليين ، كما أنها بحكم طبيعتها مدعاة إلى وجود طبقات متنازعة . ونحن هنا لا يهمنا رضا الرأسماليين أو الاشتراكيين . ولكن يجب أن نذكر أن نظرية الملكية الخاصة ليست مطلقة في الشريعة ، ويتبع ذلك تقييد استغلال الشيء المملوك .

وخلاصة القول أن حكم الأرض الزراعية في الإسلام هو وجوب استغلالها استغلالاً يدرأ أكبر محصول بأقل جهد اجتماعي ؛ حتى يجد الناس كلهم كفايتهم ، فإن تمت هذه الغاية عن طريق تملك الأفراد للأرض وعملهم فيها فلا بأس . وإلا فللدولة حق انتزاعها من بين أيديهم ، واستغلالها جماعياً حتى تنفي أكبر دخل . ولا وجه لمن يزعم أنه حر التصرف مطلقه فيما يملك من الأرض ، ما دام هذا الفرد يعيش في مجتمع إسلامي ، يكسب أفرادهم حقوقاً ، ويتطلب منهم واجبات (١) .

(١) ينتهي بهذا بحث استغلال الأرض في الإسلام ، وسيتبعه قريباً إن شاء الله بحث جديد في « سعر الفائدة » للأستاذ الباحث نفسه .

حملة رسالة الإسلام الأولون

وما كانوا عليه من المحبة والتعاون على الحق والخير
وكيف سوره بعض المؤرخين والمفرضين جهال سيرتهم

للأستاذ السيد محب الدين الخطيب

روى الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه (ك ٦٢ ب ١) عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خيرُ القرون قرنى ، ثم الدين يلوّنهم ، ثم الدين يلوّنهم (قال عمران بن حصين : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً^(١)) ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويتنذرون ولا يفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » .

وروى البخارى مثله بعده عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . وحديث ابن مسعود هذا عند الإمام أحمد أيضاً فى مسنده ، وفى صحيح مسلم ، وفى سنن الترمذى . وروى مسلم مثله فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . فالهدى كل الهدى ، مما لم تر الإنسانية مثله — قبله ولا بعده — هو الذى تلقاه الصحابة عن معلم الناس الخير . وكان الصحابةُ به خيرَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادته هو لهم ، وصدق رسولُ الله . أما الذين يدعون خلاف ذلك فهم الكاذبون . إن الخير كل الخير فيما كان عليه أصحابُ رسول الله . وإن الدين كل الدين ما اتبعهم عليه صالحو التابعين ، ثم مشى على آثارهم فيه التابعون لهم بإحسان . ومن أحطَّ أ كاذب التاريخ زعم الزاعمين أن أصحاب رسول الله صلى الله

(١) وتحديد ذلك إلى نهاية الدولة الأموية . وقد يلتحق به زمن الخلفاء الأولين من بنى العباس . قال الحافظ ابن حجر فى تفسير هذا الحديث من (فتح البارى) ج ٧ ص ٤ : « اتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين — ممن يقبل قوله — من عاش إلى حدود سنة ٢٢٠ . وفى هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفضت الفلاسفة رموسها ، وامتنح أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً ، ولم يزل الأمر فى نقص إلى الآن (أى إلى زمن الحافظ ابن حجر ٧٧٣ — ٨٥٢) وظهر قوله صلى الله عليه وسلم (ثم يفتشوا الكذب) ظهوراً بيناً حتى يشمل الأقوال والأفعال والمعتقدات .

عليه وسلم كان يُضْمِرُ العداوةَ بعضُهم لبعض . بل هم كما قال الله سبحانه عنهم في سورة الفتح — ٢٩ : « أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » وكما خاطبهم ربنا في سورة الحديد ١٠ : « وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ، وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى » وَلَا يُخْلَفُ اللَّهُ وَعْدَهُ . وهل بعد قول الله عز وجل في سورة آل عمران ١١٠ : « كُنْتُمْ حَيْرَةً لِمَنْ أَهْرَجْتَ لِلنَّاسِ » يبقى مسلماً من يكذب ربّه في هذا ، ثم يكذب رسوله في قوله « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ... » ؟ !

في صدر هذه الأمة حفظ الله كتابه بحَفَظَتِهِ أَمِيناً عن أمين ، حتى أدوا أمانة ربهم بعناية لم يسبق لها نظير في أمة من الأمم ، فلم يفرطوا في شيء من ألفاظ الكتاب على اختلاف الألسنة العربية في تلاوتها ونبرات حروفها ، وتنوع مدودها وإمالاتها ، إلى أدق ما يمكن أن يتصوره المتصور . فم بذلك وعد الله عز وجل في سورة الحجر ٩ : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

ومن صدر هذه الأمة تفرغ فريق من الصحابة فالتابعين وتلاميذهم لحمل أمانة السنة ، فكانوا يمحسون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذرعون أقطار الأرض ليدركوا الذين سمعوها من فم النبي صلى الله عليه وسلم فيتلقوها عنهم كما يتلقون أثمن كنوز الدنيا . بل كانت دار الإمارة في المدينة المنورة منتدى الفقهاء الأولين في صدر الإسلام يجتمعون إلى أميرهم مروان بن الحكم ، فإذا عُزِّيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة غير الذي كان معروفاً عندهم أرسل مروان في تحقيق ذلك إلى من نسبت تلك السنة إليه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أو أزواجه حتى يرد الحق إلى نصابه (انظر مسند الإمام أحمد : الطبعة الأولى ٦ ٢٩٩ و ٣٠٦) .

وبينما كان حَفَظَةُ الْقُرْآنِ وَحَمَلَةُ السَّنةِ المِحمِدية يجاهدون في حفظ أصول السريعة الكاملة ، كان آخرون من أبناء الصحابة وأبطال التابعين يحملون أمانة الإمامة والرعاية والجهاد والفتوح ، ويعملون على نقل الأمم إلى الإسلام يعربون ألسنتها ، ويظهرون نفوسها ، ويسلكونها في سلك الأخوة الإسلامية لتتعاون معهم على توحيد الإنسانية تحت راية الهدى ، وتوجهها إلى أهداف السعادة .

وقد بارك الله لهؤلاء وأولئك في أوقاتهم ، وأتم على أيديهم في مائة سنة ما يستحيل على غيرهم — من أهل الطرائق والأساليب الأخرى — أن يعملوه في آلاف السنين . هؤلاء هم الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم خير أمة ،

وقد صح ما أخبر به ، فإن الإسلام إنما رأى الخير على أيديهم ، فهم حفظ الله أصوله ، وبهم هدى الله الأمم . والبلاد التي دخلت في الإسلام على أيديهم نبغ منها في ظل طريقتهم وعلى أساليبهم كبار الأئمة كالإمام البخارى والإمام أبى حنيفة والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك ، فكانت الأمم تُقبل على هذه الهداية بشغف وتقدير وإخلاص — لما ترى من إخلاص دُعائها وصدقهم وإيثارهم الآجلة على العاجلة — والأمة التي تولت الدعاية لهذه الهداية تستقبل نوابغ المهتمين بصدر رحب ، وتبوى المستأهلين منهم المسكنة التي هم أهل لها .

هكذا كانت الحال في البطون الثلاثة الأولى التي امتدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفها بأنها خير أمة . أما العصور التي أتت بعدهم فإن المسلمين يتميزون فيها بمقدار اتباعهم للصدر الأول فما كان عليه من حق وخير . وهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ : لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ » رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذى في سننه عن أنس ، ورواه ابن جبان والإمام أحمد في مسنده أيضاً من حديث عمار ، ورواه أبو ليلي في مسنده عن علي بن أبي طالب ورواه الطبرانى في معجمه الكبير عن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، كل هؤلاء الصحابة رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم . فأمة محمد إلى خير في كل زمان ومكان ما تحررت الطريق الذي مشى فيه هداة القرون الثلاثة الأولى وتابَعوهم فيه . بل يرجى لمن يقيم الحق في أزماننا كما أقامه الصحابة والتابعون في أزمنتهم أن يبلغوا منزلتهم عند الله ويعدّوا في طبقتهم ، ولعلمهم المعنيون بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد والدارمى والطبرانى من حديث أبى جمعة قال : قال أبو عبيدة « يارسول الله أأحد خير منّا ؟ أسلمنا معك ، وجاهدنا معك » فقال صلى الله عليه وسلم : « قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » وإسناده حسن . وصححه الحاكم . واحتجّ الحافظ الأندلسى أبو عمر بن عبد البر بأن السبب في كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار في الأرض ، وصبرهم على الهدى وتمسكهم به إلى أن عمّ بهم في أرجائها . قال ابن عبد البر : فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن ، كانوا أيضاً عند ذلك غرباء ، وزكت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكت أعمال أولئك . ويشهد له ما رواه مسلم عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء »

ومن غربة الإسلام بعد البطون الثلاثة الأولى ظهور مؤلفين شوّهوا التاريخ تفرّطاً

للسيطان أو الحكام ؛ فزعموا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا إخواناً في الله ، ولم يكونوا رحماء بينهم ، وإنما كانوا أعداء يلعن بعضهم بعضاً ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويتآمر بعضهم على بعض ، بغياً وعدواناً .

لقد كذبوا . وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى أسمى من ذلك وأنبل ، وكانت بنو هاشم وبنو أمية أوفى من ذلك لإسلامهما ورحمهما وقربتهما وأوثق صلة وأعظم تعاوناً على الحق والخير .

حدثني بعض الذين لقيتهم في ثغر البصرة لما كنت معتقلاً في سجن الانجليز سنة ١٣٣٢ هـ أن رجلاً من العرب يعرفونه كان ينتقل بين بعض قرى إيران فقتله القرويون لما علموا أن اسمه (عمر) . قلت : وأى بأس يروونه في اسم (عمر) ؟ قالوا : حباً بأمر المؤمنين عليّ . قلت : وكيف يكونون من شيعة عليّ وهم يجهلون أن علياً سمى أبناءه بعد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية بأسماء أصدقائه وإخوانه في الله (أبي بكر) و (عمر) و (عثمان) رضوان الله عليهم جميعاً ، وأم كلثوم الكبرى بنت علي بن أبي طالب كانت زوجة لعمر بن الخطاب ولدت له زيدا ورقية ، وبعد مقتل عمر تزوجها ابن عمها محمد بن جعفر بن أبي طالب ومات عنها فتزوجها بعده أخوه عون بن جعفر فماتت عنده . وعبد الله بن جعفر ذي الجناحين ابن أبي طالب سمى أحد بنيّه باسم (أبي بكر) وسمى ابناً آخر له باسم (معاوية) ، ومعاوية هذا — أي ابن عبد الله ابن جعفر بن أبي طالب — سمى أحد بنيّه باسم (يزيد) . وعمر بن علي بن أبي طالب كان من نسله عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب اشتهر بالمبارك العلوي وكان يكنى (أبا بكر) . والحسن السبط بن علي بن أبي طالب سمى أحد بنيّه (أبا بكر) وآخر باسم (عمر) وثالثاً باسم (طلحة) . وزين العابدين علي بن الحسين سمى أحد أولاده باسم أمير المؤمنين (عمر) تيمناً وتبركاً . ولعمر هذا ذرية مباركة منهم العلماء والشعراء والشرفاء . والحسن السبط كان مصاهراً لطلحة بن عبيد الله . وإن أم اسحاق بنت طلحة هي أم فاطمة بنت الحسين بن علي . وسكينة بنت الحسين السبط كانت زوجاً لزيد بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي . وعقد لها قبله علي الأصبح ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي . وأختها فاطمة بنت الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كانت زوجة عبد الله الأكبر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وكانت قبل ذلك زوجة الحسن المثنى ، وله منها جدنا عبد الله المحض . وأم أبيها بنت عبد الله ابن جعفر ذي الجناحين بن أبي طالب كانت زوجة لأمر المؤمنين عبد الملك بن مروان ثم تزوجها علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . وأم كلثوم بنت جعفر

ذى الجناحين كانت زوجة للحجاج بن يوسف وتزوجها بعد ذلك أبان بن عثمان بن عفان . والسيدة نفيسة المدفونة في مصر (وهى بنت حسن الأنور بن زيد بن الحسن السبط) كانت زوجة لأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك وولدت له . وعلى الأكبر ابن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب أمه ليلي بنت مرة بن مسعود الثقفي وأمها ميمونة بنت أبي سفيان بن حرب الأموي . والحسن المثنى بن الحسن السبط أمه خولة بنت منظور الفزارية وكانت زوجة لمحمد بن طلحة بن عبيد الله ، فلما قتل عنها يوم الجمل ولها منه أولاد تزوجها الحسن السبط فولدت له الحسن المثنى . وميمونة بنت أنى سفيان بن حرب جدة علي الأكبر بن الحسين بن علي لأمه . ولما توفيت فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم تزوج علي بعدها أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس .

فهل يعقل أن هؤلاء الأقارب المتلاحمين المتراحمين الذين يتخيرون مثل هذه الأمهات لأنسألهم ومثل هذه الأسماء لفلذات أكبادهم ، كانوا على غير ما أَرَادَهُ اللهُ لهم من الأخوة في الإسلام ، والمحبة في الله ، والتعاون على البر والتقوى ؟

لقد تواتر عن أمير المؤمنين على كرم الله وجهه أنه كان يقول على منبر الكوفة : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » روى هذا عنه من أكثر من ثمانين وجهاً ، ورواه البخارى وغيره ، ولا يوجد تاريخ في الدنيا : لا تاريخ الإسكندر المقدوني ، ولا تاريخ نابليون ، صحت أخباره كصحة هذا القول — من الوجهة العلمية التاريخية — عن علي بن أبي طالب . وكان كرم الله وجهه يقول : « لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري » أى أن هذه الفرية توجب على صاحبها الحد الشرعى ، ولهذا كان الشيعة المتقدمون متفقين على تفضيل أبي بكر وعمر . نقل عبد الجبار الهمداني في كتاب (تثبيت النبوة) أن أبا القاسم نصر بن الصباح البلخي قال في (كتاب النقض على ابن الراوندى) : سأل سائل شريك بن عبد الله فقال له : أيهما أفضل : أبو بكر أو علي ؟ فقال له : أبو بكر . فقال السائل : تقول هذا وأنت شيعي ؟ فقال له : نعم : من لم يقل هذا فليس شيعياً . والله لقد رقي هذه الأعواد على فقال : « ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » فكيف رد قوله ؟ وكيف نكذبه ؟ والله ما كان كذاباً . وفي ترجمة يحيى بن يعمر العدواني من (وفيات الأعيان) للقاضي ابن خلكان أن يحيى بن يعمر كان عداؤه في بني ليث لأنه جليف لهم ، وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لدى فضل من غيرهم . ثم ذكر قصة له مع الحجاج ، وإقامته الحجة على أن الحسن والحسين من

ذرية رسول الله بآية « ووهبنا له — أي لإبراهيم — إسحاق ويعقوب » إلى قوله تعالى : « وزكريا ويحيى وعيسى » . قال يحيى بن يعمر : وما بين عيسى وإبراهيم أكثر مما بين الحسن والحسين ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فأقره الحجاج على ذلك وكبر في نظره وولاه القضاء على خراسان مع علمه بتشيعه . وأنت تعلم أن الحجاج هو ما هو ، ومع ذلك فقد كان — مع فاضل متجاهر بشيئته المعتدلة محتج للحق بالحق — أكثر إنصافاً من الكذبة الفجرة الذين جاءوا في زمن السوء ، فصاروا كما تعرضوا لأهل السابقة والخير في الإسلام ، ومن فتحت أقطار الأرض على أيديهم ، ودخلت الأئمة في الإسلام بسعيهم ودعوتهم وبركتهم ، وكلهم من أهل خير القرون بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، وما منهم إلا من يتصل ببني هاشم وآل البيت بالخوالة والرحم والمصاهرة . وبالرغم من كل ذلك يتعرضون لسيرتهم بالمساءة كذباً وعدواناً ، ويرضون لأنفسهم بأن يكونوا أقل إنصافاً وإذعاناً للحق حتى من الحجاج بن يوسف . وإني أخشى عليهم لو أنهم كانوا في مثل مركز الحجاج بن يوسف لكانت فيهم كل مآخذ الصالحين عليه ، مع التجرد من كل مزايه وفضائله وفتوحه التي بلغت تحت رايات كبار قواده وصغارهم إلى أقصى أقطار السند ، وغشيت جبال الهند وما صاقها .

وإن خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في نعت صديقه وإمامه خليفة رسول الله أبي بكر يوم وفاته من بليغ ما كان يستظهره الناس في الأجيال الماضية . وفي خلافة عمر دخل علي في بيعته وكان من أعظم أعوانه على الحق ، وكان يذكره بالخير ويثني عليه في كل مناسبة ، وقد علمت أنه سمى ولدين من أولاده باسميهما ثم سمى ثالثاً باسم عثمان لعظيم مكانته عنده ، ولأنه كان إمامه ما عاش ، ولولا أن عثمان — بعد أن أقام الحجة على الذين ثاروا عليه بتحريض أعداء الله رجال عبد الله بن سبأ اليهودي — منع الصحابة من الدفاع عنه حقناً لدماء المسلمين ، وتضييقاً لدائرة الفتنة ، ولما علمه من بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالشهادة والجنة ، لولا كل ذلك لكان علي في مقدمة من في المدينة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا كلهم على استعداد للدفاع عنه ولو ماتوا في سبيل ذلك جميعاً . ومع ذلك فإن علياً جعل ولديه الحسن والحسين على باب عثمان وأمرهما بأن يكونا طوع وإشارته في كل ما يأمرهما به ولو أدى ذلك إلى سفك دمهما ، وأوعز إليهما بأن يخبرا أباهما بكل ما يحب عثمان أن يقوم له به . وكذب علي الله وعلى التاريخ كل ما اخترعه الكاذبون مما يخالف ذلك ويناقض وقوف الحسن والحسين في بابيه واستعدادهما لطاعته في كل ما يأمر به . وقد كان من عادة سلفنا أن يدونوا أخبار تلك الأزمان منسوبة إلى رواة ، ومن أراد معرفة قيمة كل خبر على طريقة (أنسى لك هذا ؟) فرجع إلى ترجمة كل راو في كل سند لتحصت له الأخبار ، وعلم

أن الأخبار الصحيحة التي يرويها أهل الصدق والعدالة التي تثبت أن أصحاب رسول الله كانوا كلهم من خيرة من عرفت الإنسانية من صفوة أهلها ، وأن الأخبار التي تشوّه سيرة الصحابة وتوهم أنهم كانوا صغار النفوس هي التي رواها الكذبة من المجوس الذين تسموا بأسماء المسلمين .

ولعلك تسألني : إذن ما هو أصل التشيع ؟ وهل لم يكن لعلّ شيعة في الصدر الأول ؟ وما هي وقعة الجمل ، وما الباعث على وقوعها ؟ وما هي حقيقة التحكيم ؟ إن الجواب على هذه الأسئلة بالأسانيد التي ترتاح إليها قلوب المنصفين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم ، يحتاج إلى كتابة تاريخ المسلمين من جديد ، وإلى أخذه — عند كتابته — من ينابيعه الصافية ، ولا سيما في المواطن التي شوّهها أهل الدم الحربية من تجار الأخبار . وأعيد هنا ما قلته غير مرة ، وهو أن الأمة الإسلامية أغنى أم الأرض بالمادة السليمة التي تستطيع أن تبني بها كيان تاريخها ، إلا أنها لا تزال أقل أم الأرض عناية ببناء تاريخها من تلك المواد السليمة . والناس الآن بين قارىء لكتب قديمة أراد مؤلفوها أن يتداركوا الأخبار قبل ضياعها فجمعوا فيها كل ما وصلت إليه أيديهم من غث وسمين ، منبهين على مصادر هذه الأخبار وأسماء رواها ليكون القارىء على بينة من صحتها وسقيمها ، ولكن بعد الزمن وجهل أكثر القراء بمراتب هؤلاء الرواة ودرجاتهم في الصدق والكذب ، وفي الوفاء للحق أو الميل مع الهوى ، تراهم لا يستفيدون من هذه المصادر ، ولا من الكتب التي اعتمدت عليها بلا تمحيص وتحقيق . وهنا لك كتب قديمة أيضا ولكنها دون هذه الكتب ، لأن أصحابها من أهل الهوى ، ومن لهم صبغات حزبية يصبغون أخبارهم بألوانها ، فهي أعظم ضرراً ، ولعلها أوسع من تلك انتشارا . أما الكتب الحديثة كمؤلفات جرجى زيدان ، والبحوث التي يستقيها حملة الأقلام من مؤلفات المستشرقين على غير بصيرة بدسائسهم ، فإنها ثالثة الأثافي وعظيمة العظام ، ولذلك باتت هذه الأمة محرومة أغزر ينابيع قوتها وهو الإيمان بعظمة ماضيها ، في حين أنها سليله سلف لم ير التاريخ سيرة أظهر وأبهر وأزهر من سيرته .

إلا أن من نعم الله علينا عناية علماء الحديث بتحقيق أحوال رواة الأخبار ومبلغ أمانتهم في حملها ، وقد صنفوا في ذلك كتباً ومعاجم عظيمة النفع لمن يراجعها عند التأليف ، ولهم تحقيقات جليلة في جميع المسائل التي يترتب عليها اتجاه الحق في الحكم على الأحداث الكبرى في تاريخ الإسلام .

ومع أن كثيراً من أمهات الكتب النفيسة فقدت في كارثة هولاكو والحروب

الصليبية واكتساح الأندلس ، ثم بسبب انحطاط المستوى العلمى فى القرون الأخيرة ، إلا أن كثيراً من تحقيقات المحققين لا تزال منبثة فى مطاوى الكتب الإسلامية ، والأمل عظيم فى قيام نهضة جديدة لبعث ماضى هذه الأمة المجيد على ضوء ما تركه علماؤها من نصوص وتوجيهات .

وأعود بعد هذا إلى الأسئلة التى تقدمت آنفاً عن أصل الفن والتشيع ، فقد زعم الزاعمون لعلى — كرم الله وجهه — ما لم يكن له علم به : زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم عينه للخلافة بعده يوم استخلفه على المدينة وهو متوجه إلى الشام فى غزوة تبوك ، وقال له يومئذ « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي » . ورجال الحديث يختلفون فى درجة هذا الخبر من الصحة ، فبعضهم يراه صحيحاً ، وبعضهم يراه ضعيفاً ، وذهب الإمام أبو الفرج بن الجوزى إلى أنه موضوع مكذوب . ونحن إذا رجعنا إلى الظروف التى قالوا إنها لا بدت هذا الحديث نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يتوجه نحو تبوك أمر علياً بأن يتخلف فى المدينة ، وكان جميع رجالها والقادرين على الحرب من الصحابة قد خرجوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فوجد على نفسه وقال للنبى صلى الله عليه وسلم : « أتجعلنى مع النساء والأطفال والضعفة ! » فقال له النبى صلى الله عليه وسلم تطيباً لنفسه : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ » أى فى استخلاف موسى أخاه هارون لما ذهب إلى الجبل ليعود بالألواح . فهذا الاستخلاف لم يكن له فى نظر سيدنا على كرم الله وجهه هذا المعنى الوهمى الذى اخترعه المتحزبون فيما بعد ، بل هو على عكس ذلك كان يراه حرماناً له من مكانة أعلى وهى مشاركة إخوانه الصحابة فى ثواب الجهاد لتكوين الكيان الإسلامى المنشود . زد على ذلك أن هذا النوع من الاستخلاف لم ينفرد به على كرم الله وجهه ، بل تكرر من النبى صلى الله عليه وسلم استخلاف ابن أم مكتوم على المدينة نفسها ، وكان ابن أم مكتوم يتولى الإمامة بالناس فى المدينة مدة خلافته عليها . وقد ناظر كبار الشيعة فى هذا الحديث علامة العراق السيد عبد الله السويدي عندما جمعه بهم نادرشاه فى النجف سنة ١١٥٦ هـ فأخفهم وخذل باطلهم كما ترى ذلك فيما دونه السويدي رحمه الله بقلبه عن هذه الواقعة وأثبتناه فى رسالة طبعناها بعنوان (مؤتمر النجف)

فالإمام على كرم الله وجهه كان يعلم أن الخلافة الحققة هى التى انضوى فيها إلى إجماع إخوانه أصحاب رسول الله يوم قدر الله لها بحكمته ما شاء وقضى فيها بعدله ما أراد . وما كان لمسلم من عامة المسلمين — فضلاً عن مثل على فى عظيم مكانته فى الأولين والآخرين — أن يسخط قدر الله ، أو يتمرد على قضائه ، أو يرتضى غير الذى ارتضاه

إخوانه من الصحابة ، أو يداجى فى إجماعه معهم على ما فيه صلاح المسلمين . ومن الافتئات عليه والانتقاص من قدره والتشويه لجمال الإسلام وتاريخه الشك فى إخلاص على أو فى اغتباطه بما بايع عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق وصاحبيه بعده عمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين . ومن المزايا التى تفرد بها على وطبقته ممن ولى الخلافة أو دخل فى بيعتها فى الصدر الأول أنهم كانوا يرون ولاية هذا الأمر (واجبا) يقوم به الواحد منهم إذا وجب عليه كما يقوم بسائر واجباته ، ولا يرونها (حقا) لأحدهم يعادى عليه المسلمين ويعرض دماءهم للخطر والشر ليستأثر بها على غيره .

وجميع الوقائع — إذا جردت من زيادات أهل الأهواء — تدل على هذه المكانة السامية لعلى وإخوانه ، فلما شوهت الوقائع وأخبارها بما دسّ فيها المتزيدون من أكاذيب لا مصلحة فيها لعلى وآله ولا للإسلام ، كانت بها لعلى وأصحابه صورة قبيحة لا تنطبق على الحقيقة والواقع ، وظن المخدوعون بها أن تلك الطبقة الممتازة على جميع أمم الأرض بعفتها وطهاره نفوسها وترفعها عن الصغار ، إنما كانت على عكس ذلك تتنازع كالأطفال والرعاع على توافه الدنيا وسفاسف العاجلة . فالخلافة كانت فى نظر الراشدين (عبثاً) يتولى الواحد منهم حملة بتكليف من المسلمين أداء للواجب ، ولم تكن عند أحد منهم (متاعاً) ولا مأكلة حتى ينزع غيره عليها . ولما تأمرت المجوسية واليهودية على سفك دم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأبقى الله من حياته بقية يدبر فيها للمسلمين أمرهم بعده ، جعل الأمر شورى ، واقترح عليه بعض الصحابة أن يريح المسلمين من ذلك فيعهد إلى ابنه عبد الله بن عمر — ولم يكن عبد الله بن عمر دون أبيه فى علم أو حزم أو بعد نظر أو إخلاص لله ورسوله والمؤمنين — رفض عمر ذلك وقال : « بحسب آل الخطاب أن يليها واحد منهم ، فإن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان رزءاً فقد قمنا بنصيبنا فيه » . وعبد الله بن عمر نفسه عرضت عليه الإمامة فيمن عرضت عليهم عند مقتل عثمان فى ذى الحجة سنة ٣٥ فهرب منها كما كان يهرب منها طلحة والزبير وعلى ، ولم يتولها على إلا قياماً بواجب ، ولم يستمدّها من خرافات التجزيين وسخافاتهم ، بل من إرادة الأمة فى ذينك اليومين (الخميس ٢٤ ذى الحجة والجمعة ٢٥ منه) كما أعلن ذلك على رؤوس الأشهاد وهو واقف على أعواد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعلى إلى تلك الساعة لم يكن له شيعة خاصة به يعرفها وتتصل به ، ولم يخطر قط على باله أن يجعل أجداً من الناس شيعة له ، لأنه هو نفسه وسائر إخوانه من الصحابة كانوا شيعة الإسلام الملتفة حول خلفاء نبيها صلى الله عليه وسلم أبى بكر ثم عمر ثم عثمان . ولو حدثته نفسه باتخاذ شيعة خاصة به غير جمهور الأمة الذى يتشيع للبيعة العامة لكان

ذلك نقضاً منه لما عقد عليه صفقة يمينه لإمامه ، وما طوق به عنقه من بيعه الإسلام لأصحابها . ولا شك أنه استمر على ذلك إلى عشية الخميس ٢٤ من ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة ، وكان أهلاً لأن يستمر على ذلك بأمانة وإخلاص ، ولو لم يكن على ذلك لما كان في هذه المنزلة السامية عند الله والناس . ومن الثابت عنه في عشية ذلك اليوم أنه كان يدافع الخلافة عن نفسه ، ويحاول أن يقنع أخاه طلحة بن عبيد الله — أحد العشرة المبشرين بالجنة — بأن يتولى هو هذا الأمر عن المسلمين ، بينما طلحة أيضاً كان يدافعها عن نفسه ويحاول إقناعه على بأن يكون هو حامل هذا العبء القائم عن المسلمين بهذا الواجب . وانظر الحوار بينهما في ذلك كما رواه عالم من كبار علماء التابعين وهو الإمام محمد بن سيرين على ما أورده أبو جعفر الطبري في تاريخه (٦ : ١٥٦ طبعة مصر و ١ : ٣٠٧٥ طبعة هولندا) فيقول على لطلحة « ابسط يدك يا طلحة لأبياعك » فيقول له طلحة « أنت أحق ، فأنت أمير المؤمنين فابسط يدك » . وكاد الثأرون من جماعة الفسطاط والكوفة والبصرة يشنون على طلحة والزبير فيقتلونهم لهربهم من ولاية الأمر وتعففهم جميعاً عن قبول الخلافة ، فانهى الأمر بقبول على ، وارتقى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي (الجمعة ٢٥ من ذى الحجة سنة ٣٥) فخطب خطبة حفظ لنا الطبري نصها (٦ : ١٥٧ و ١ : ٣٠٧٧) فقال : « أيها الناس عن ملأ وأذن ، إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم . وقد افترقنا بالأمس على أمر (أى على البيعة له) فإن شئتم قعدت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » وبذلك أعلن أنه لا يستمد الخلافة من شيء سبق ، بل يستمدّها من البيعة إذا ارتضتها الأمة . »

ومن مزايا الطبقة الأولى في الإسلام التي صحبت النبي صلى الله عليه وسلم وتأدبت بأدبه وتشبعت بسننه أنها كانت ترى (الاعتدال) ميزان الدين ، و (الرفق) جمال الإسلام ؛ لأن نبيها صلى الله عليه وسلم كان يقول لها « إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيء إلا شانه » وكان يقول لها : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » ويقول : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ويقول : « إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فيه » . فلما نشأت الطبقة الثانية في حياة الطبقة الأولى أدب الآباء بنهم بهذا الأدب . ولكن أكثر ما كانت هذه الطريقة ناجحة في الحجاز ونجد والشام . وكان في ناشئة الكوفة والبصرة والفسطاط من أخذ بهذه الطريقة كما أن فيهم من شب على الغلو في الدين . ومن أكبر المصائب على الإسلام في ذلك الحين تسلط إبليس من أبالسة اليهود على الطبقة الثانية من المسلمين فتظاهر لها

بالإسلام وادعى الغيرة على الدين والمحبة لأهله ، وبدأ يرمى شبكته في الحجاز والشام فلم تعلق بشيء بسبب تشبههم بفطرة الإسلام في اعتداله ورفقه ، وحذرهم من طرفي الإفراط والتفريط . فذهب الملعون يتنقل بين الكوفة والبصرة والفسطاط ويقول لحديثي السن وقليلي التجربة من شبابها : عجباً لمن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع . وقد قال الله عز وجل « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . وكان يقول لهؤلاء الشبان « كان فيما مضى ألف نبيّ ولكل نبيّ وصيّ وإن علياً وصيّ محمد » ويقول لهم « محمد خاتم الأنبياء ، وعليّ خاتم الأوصياء » ثم يقول لهم محرضاً على عثمان وكان ذلك في أواخر خلافة عثمان سنة ٣٠ « ومن أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله ، وممن يثب على عليّ وصيّ رسول الله وينزع منه أمر الأمة » ويقول لهم « إن عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهنالك عليّ وصيّ رسول الله فانهضوا فحركوه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس » . . .

إن هذا الشيطان هو عبد الله بن سبأ من يهود صنعاء ، وكان يسمى ابن السوداء ، وكان يبث دعوته بنجث وتدرج ودهاء ، واستجاب له ناس من مختلف الطبقات ، فاتخذ من بعضهم دعاة فهموا أغراضه وعولوا على تحقيقها . واستكثر أتباعه بآخرين من البلهاء الصالحين المتشدين في الدين المنتطعين في العبادة ممن يظنون الغلو فضيلة والاعتدال نقصيراً . فلما انتهى ابن سبأ من تربية نفر من الدعاة الذين يحسنون الخداع ويتقنون تزوير الرسائل واختراع الأكاذيب ومخاطبة الناس من ناحية أهوائهم ، بث هؤلاء الدعاة في الأمصار — ولا سيما الفسطاط والكوفة والبصرة — وعنّي بالتأثير على أبناء الزعماء من قادة القبائل وأعيان المدن الذين اشترك آباؤهم في الجهاد والفتح فاستجاب له من بلهاء الصالحين وأهل الغلو من المنتطعين جماعات كان على رأسهم في الفسطاط الغافقي بن حرب المكي وعبد الرحمن بن عديس البلوي التجيبي الشاعر وكنانة بن بشر بن عتاب التجيبي وسودان بن حمران السكوني وعبد الله بن زيد بن ورقاء الخزاعي وعمرو بن الحمق الخزاعي وعروة بن النباع الليثي وقتيبة السكوني ، وكان على رأس من استغواهم ابن سبأ في الكوفة عمرو بن الأصم وزيد بن صوحان العبدى والأشتر مالك بن الحارث النخعي وزباد بن النضر الحارثي وعبد الله بن الأصم . ومن البصرة حرقوص بن زهير السعدي وحكيم بن جبلة العبدى وذريح بن عباد العبدى وبشر بن شريح الحطمي بن ضبيعة القيسي وابن الحرش بن عبد عمرو الحنفي . أما المدينة فلم يندفع في هذا الأمر من أهلها إلا ثلاثة نفر وهم : محمد بن أبي بكر ومحمد

ابن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبدشمس وعمار بن ياسر . ومن دهاء بن سبأ ومكره أنه كان يبيت في جماعة الفسطاط الدعوة لعليّ (وعلى لا يعلم ذلك) ، وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير . وليس هنا موضع تحليل نفسيات الخدوعين بدعوة هذا الشيطان ، ولا نريد أن نقل ذم علي وطلحة والزبير لهم وما قالوه فيهم يوم نزل الثائرون في ذي خُشب والأعوص وذى المروة ، وكيف زور ابن سبأ وشياطينه رسالة على لسان علي بدعوة جماعة الفسطاط إلى الثورة في المدينة فلما واجهوا علياً بذلك وقالوا له أنت الذي كتبت إلينا تدعونا فأنكر عليهم أنه كتب لهم وكان ينبغي أن يكون ذلك سبباً ليقظهم ويظة على أيضاً إلى أن بين المسلمين شيطاناً يزور عليهم الفساد لخطّة مرسومة تنطوي على الشر الدائم والشرر المستطير ، وكان ذلك كافياً لإيقاظهم إلى أن هذه اليد الشريرة هي التي زوّرت الكتاب على عثمان بدليل أن حامله كان يترأى لهم متعمداً ثم يتظاهر بأنه يتكلم عنهم ليثير ريبهم فيه ، فراح المسلمون إلى يومنا هذا ضحية سلامة قلوبهم في ذلك الحين . إن دراسة هذا الموضوع الآن على ضوء القرائن القليلة التي بقيت لنا بعد مضي ثلاثة عشر قرناً تحتاج إلى من يتفرّغ لها من شباب المسلمين ، وسيجدون مستندات الحق في تاريخهم كافية لوضع كل شيء في موضعه إن شاء الله .

فأول فتنة وقعت في الإسلام هي فتنة المسلمين بمقتل خليفتهم وصهر نبهم الإمام العادل الكريم الشهيد ذي النورين عثمان بن عفان رضوان الله عليه . وقد علمت أن الذين قاموا بها وجنوا جنايتها فريقان : خادعون ومخدوعون . وقد وقعت هذه الكارثة في شهر الحج ، وكانت عائشة أم المؤمنين قد خرجت إلى مكة مع حجاج بيت الله ذلك العام ، فلما عادت ورأت ما حدث في مدينة الرسول أحزنها بغى البغاة على خليفة نبهم ، وعلمت أن عثمان كان حريصاً على تضيق دائرة الفتنة ، فمنع الصحابة من الدفاع عنه ، بعد أن أقام الحجة على الثائرين في كل ما ادّعوه عليه وعلى عماله ، وكان الحق معه في كل ذلك وهم على الباطل ، وكان هو المثل الإنساني الأعلى في العدل وكرم النفس والنزول على قواعد الإسلام واتباع سننه ، وكان في مدة خلافته أكرم وأصلح وأكثر إنصافاً وقياماً بالحق واتباعاً للخير مما كان هو عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . واجتمعت عائشة بكبار الصحابة ، وتداولت الرأي معهم فيما ينبغي عمله — وقد عرف القراء ما كانوا عليه من نزاهة ، وفرار من الولاية ، وترفع عن شهوات النفس — فرأوا أن يسيروا مع عائشة إلى العراق ليتفقوا مع أمير المؤمنين عليّ على الاقتصاص من السبائين الذين اشتركوا في دم عثمان وأوجب الإسلام عليهم الحدّ فيه . ولم يكن يخطر

على بال عائشة وكل الذين كانوا معها — وفي مقدمتهم طلحة والزبير المشهود لهما من النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة — أنهم سائرّون ليحاربوا أحداً ، ولم يكن يخطر ببال عليّ أن هؤلاء أعداء له وأنهم حرب عليه . وكل ما في الأمر أن أولئك المنتطعين الغلاة الذين انخدعوا بدعوة عبد الله بن سبأ واشتركوا في قتل عثمان انغمسوا في جماعة علي ، وكان فيهم الذين تلقنوا الدعوة له وتلمذوا على ذلك الشيطان اليهودي في دسيسة أوصياء الأنبياء ودعوى خاتم الأوصياء ، فجاءت عائشة ومن معها للظالبة بإقامة الحد على الذين اشتركوا في جناية قتل عثمان ، وما كان عليّ — وهو ما هو في دينه وخلقه — ليتأخر عن ذلك ، إلا أنه كان ينتظر أن يتحاكم إليه أولياء عثمان . وقبل أن يتفق الفريقان على ذلك شعر قتلة عثمان بأن الدائرة ستدور عليهم ، وهم على يقين بأن علياً لن يحميهم من الحق عند ظهوره ، فأنشب هؤلاء حرب الجمل ، فكانت الفتنة الثانية بعد الفتنة الأولى . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣ : ٤١ — ٤٢ و ٤٤) معتمداً على كتاب (أخبار البصرة) لعمر بن شبة وعلى غيره من الوثائق القديمة التي جاء فيها عن ابن بطل قول المهلب : « . . . إن أحداً لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة . وإنما أنكرت هي ومن معها عليّ منعه من قتل قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم . وكان عليّ ينتظر من أولياء عثمان أن يتحاكموا إليه ، فإذا ثبت على أحد بعينه أنه ممن قتل عثمان اقتص منه . فاختلفوا بحسب ذلك ، وخشى من نسب إليهم القتل أن يصطلحوا على قتلهم ، فأنشبا الحرب بينهم (أي بين فريق عائشة وعليّ) إلى أن كان ما كان »

ونجح قتلة عثمان في إثارة الفتنة بوقعة الجمل ، فترتب عليها نجاتهم وسفك دماء المسلمين من الفريقين . وإنك لتجد الأسماء التي سجلها التاريخ في فتنة عثمان بقي يتردد كثير منها في وقعة الجمل ، وفيما بين الجمل وصفين ، ثم في وقعة صفين وحادثة التحكيم . وفي هذه الحادثة الأخيرة اتسعت دائرة الغلو في الدين ، فكثر المصابون بوبائه . وتفننوا في مذاهبه ، إلى أن انتهى أمرهم بانشقاق الخوارج عن علي ، وتميز فريق من المتخلفين مع علي باسم الشيعة . ولم يقع نظري على اسم للشيعة في حياة علي كلها إلا في هذا الوقت (سنة ٣٧ هـ) ومن الظواهر التي تسترعى الأنظار في تاريخ هذه الفترة أن الغلاة من الفريقين — فريق الشيعة وفريق الخوارج — كانوا سواء في الحرمة للشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . تبعاً لما كان عليه أمير المؤمنين علي نفسه ، وما كان يعلنه على منبر الكوفة من الثناء عليهما والتنويه بفضلهما . أما الخوارج فإنهم والأباضية ظلوا على ذلك لم يتغيروا أبداً ، فأبو بكر وعمر كانا عندهم

أفضل الأمة بعد نبيها ، استرسالا منهم فيما كانوا عليه مع علي قبل أن يفارقوه .
وأما الشيعة فإنهم عند ما جددوا بيعتهم لعلي بعد خروج الخوارج إلى حروراء والنهر واء
قالوا له أولا : « نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت » . فشرط لهم كرم الله
وجهه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أى أن يوالوا من والى على سنة رسول الله
ويعادوا من عادى على سنته صلى الله عليه وسلم ، فجاءه ربيعة بن أبي شداد الخثعمى
— وكان صاحب راية خثعم فى جيش على أيام الجمل وصفين — فقال له على : « بايع
على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم » فقال ربيعة : « وعلى سنة أبي بكر
وعمر » فقال على : « لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم لم يكونا على شىء من الحق » أى أن سنة أبي بكر وعمر إنما كانت
محمودة ومرغوباً فيها لأنها قائمة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله . فبيعتكم الآن على
كتاب الله وسنة رسوله تدخل فيها سنة أبي بكر وعمر .

هكذا كان أمير المؤمنين على من أخويه وجيبيه خليفتي رسول الله أبي بكر وعمر
فى حياته كلها ، وهكذا كانت شيعته الأولى : من خرج منهم عليه ، ومن جدد البيعة
له بعد التحكيم .

وحكاية التحكيم هذه كانت مادة دسمة للغرضين من مجوس هذه الأمة أتاحت لهم
دس السموم فى تاريخنا على اختلاف العصور . وأول من شمر عن ساعديه للعبث بها
وتشويه وقائمها أبو مخنف لوط بن يحيى ، ثم خلف خلف بعد أبي مخنف بلغوا من
الكذب ما جعل أبا مخنف فى منزلة الملائكة بالنسبة إلى هؤلاء الأبالسة . وأبو مخنف
معروف عند محصى الأخبار وصيارفة الرجال بأنه إخبارى تالف لا يوثق به . نقل
الحافظ الذهبى فى (ميزان الاعتدال) عن حافظ إيران ورأس المحققين من رجالها
أبى جاتم الرازى رحمه الله أنه تركه وحذر الأمة من أخباره ، وأن الدارقطنى
أعلن ضعفه ، وأن ابن معين حكم عليه بأنه ليس بشقة ، وأن ابن عدى وصفه بأنه
« شيعى محترق » .

ومن براعة هؤلاء الغرضين فى تحريف الوقائع ودس أغراضهم فيها ، وتوجيهها
بحسب أهوائهم لا كما وقعت بالفعل ، أنهم كانوا يعمدون إلى حادثة وقعت بالفعل
فيوردون منها ما كان يعرفه الناس ، ثم يلصقون بها لصيقاً من الكذب والإفك
يوهمون أنه من أصل الخبر ومن جملة عناصره ، فيأتى الدين بعدم فيجدون الخبر القديم
مختصراً فيحكمون عليه بأنه ناقص ، ويقولون « من حفظ حجة على من لم يحفظ »
ويتناولون الخبر بما لصق به من لصيق مفترى ، حتى تكون الرواية الجديدة وما فى

بطنها من جنين الإثم هي التداولة بين الناس . وقد يعمد هؤلاء المغرضون إلى موهبة من مواهب النبوغ عرف بها أحد أبطال التاريخ الإسلامي وعظماء الدعاة الفاتحين ، ولم يعرف عنه استعمالها إلا في سبيل الحق والخير ، فيطلعون على الناس بأكاذيب يرتبونها على تلك الموهبة ، ويوهمون أن رجل الحق والخير الذي حلاه الله بتلك الموهبة ولم يستعملها إلا في نصر دين الله وتوسيع نطاق الوطن الإسلامي ، قد انقلب بزعمهم مع الزمن ، وسخر نبوغه للباطل والشر : فإذا أخذ المحققون في تمحيص ذلك وتحري مصادر هذه التهم التي لا تلتئم مع ما تقدمها من سيرة ذلك البطل المجاهد وجدوها من بضاعة الكذابين ومفترياتهم ، ولكن قلما يجدى ذلك بعد أن يكون « قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً »

هذا أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل السهمي بطل أجنادين ، وفاتح مصر وأول حاكم ألغى نظام الطبقات فيها ، وكان السبب الأول في عروبته وإسلام أهلها وشريك مسلميها في حسناتهم من زمنه إلى الآن لأنه الساعي في دخولهم في الإسلام — هذا الرجل العظيم عرفه التاريخ بالدهاء ونضوج العقل وسرعة البادرة ، وكان نضوج عقله سبب انصرافه عن الشرك ترجيحاً لجانب الحق واختياراً لما دله عليه دهاؤه من سبيل الخير ، فجاء مزيفو الأخبار من مجوس هذه الأمة وضحاياهم من البلهاء فاستغلوا ما اشتهر به عمرو من الدهاء استغلالاً تقر به عين عبد الله بن سبأ في طبقات الجحيم . يقول قاضي قضاة أشيلية : بالأندلس الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي العافري (المولود في أشيلية سنة ٤٦٨ والمتوفى بشعر الإسكندرية سنة ٥٤٣) في الجزء الثاني من كتابه (العواصم من القواصم) ص ١٣٧ بعد أن ذكر ما شاع بين الناس في مسألة تحكيم عمرو وأبي موسى ، وما زعموه من أن أبا موسى كان أبله وأن عمرأ كان محتالاً : « هذا كله كذب صراح ، ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة ، ووضعته التاريخية للبلوك فتوارثه أهل المجانة والجهالة بمعاصي الله والبدع . وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات أنهما — يعني عمرأ وأبا موسى — لما اجتمعا للنظر في الأمر ، في عصبة كريمة من الناس منهم ابن عمر ، عزل عمرو ومعاوية . ذكر الدارقطني بسنده عن حنين بن المنذر أنه لما عزل عمرو ومعاوية جاء (أي حنين) ف ضرب فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية ، فباع نبأ معاوية ، فأرسل إليه فقال : إنه بلغني عن هذا (يعني عمرو بن العاص) كذا وكذا (يعني اتفاقه مع أبي موسى على عزل الأميرين المتنازعين حقناً لدماء المسلمين ورداً للأمر إليهم يختارون من يكون به صلاح أمرهم) . فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه — قال حنين — : فأتيته فقلت :

أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعما فيه ؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا ، والله ما كان الأمر على ما قالوا ، ولقد قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر ؟ قال : أرى أنه في النفر الذي توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية ؟ فقال : إن يستعن بكما فبيكما معاوية ، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما . قال : فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه . فأتيته (أي أن حضين أتى معاوية) فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه أي أن الذي بلغ معاوية من أن عمرآ . وأبا موسى عزلاه هو كما بلغه ، وأنهما رأيا أن يرجع في الاختيار من جديد إلى النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . ثم ذكر القاضي أبو بكر ابن العربي بقية خبر الدار قطنى عن إرسال معاوية رسولا — وهو أبو الأعور الذكوانى — إلى عمرو بن العاص يعاتبه ، وأن عمرآ أتى معاوية وجرى بينهما حوار وعتاب ، فقال عمرو لمعاوية : « إن الضَّجُور قد تحتلب العلبة » وهو مثل معناه أن الناقة الضجور التي لاتسكن للحالب قد ينال الحالب من لبنها ما يملأ العلبة . فقال له معاوية « وتريد الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناؤه » .

فرواية الدار قطنى هذه — وهو من أعلام الحديث — عن رجال عدول معروفين بالثبوت ، ويقدرّون مسئولية النقل ، هي التي تتناسب مع ماضى عمرو وأبى موسى وأيامهما في الإسلام ومكاتهما من النبي صلى الله عليه وسلم وموضعهما من ثقة الفريقين بهما واختيارهما من بين السادة القادة المجربين . وأما الافتئات على أبى موسى والايهام بأنه كان أبله فهو أشبه بالرقعة الغربية في ردائه السابغ الجميل . يقول القاضي أبو بكر بن العربي : « وكان أبو موسى رجلا تقيا ثقفا فقيها عالما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مع معاذ ، وقدمه عمر بن الخطاب وأثنى عليه بالفهم . وزعمت الطائفة التاريخية أنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوعا في القول » ثم رد هذه الأكاذيب وأحال في تفصيل الرد على كتاب له اسمه (سراج المريدين) .

وبعد فإن صحائف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت كقلوبهم نقاء وسلامة وطهراً ، وما تتمناه من تمحيص التاريخ أول ما يشترط له فيمن يتولاه أن يكون سليم الطوية لأهل الحق والخير ، عارفا بهم كما لو كان معاصراً لهم ، بارعا في التمييز بين حملة الأخبار ومن عاش منهم بالكذب والديس والهوى ، ومن كان منهم يدين لله بالصدق والأمانة والتحرز عن تشويه صحائف المجاهدين الفاتحين الذين لو لامهم لسكنا نحن وأهل أوطاننا جميعاً لا نزال كفره ضالين .

شكوى...

« في صدورنا جذوة من الأمل لا يزيد لها ضرب الرياح إلا توهجاً ، غير أن
عتمة الليل تبدو — أحياناً — في نور هذه الجذوة الخافق شديدة قاسية »

نحن نعيش في مستنقع قدر ، في عالم موبوء ملوث . . . امتدت يد الشيطان إلى
الأنفس والرؤوس : فالآراء سقيمة والمشاعر سقيمة والأوضاع سقيمة وكل ما يحيط
بالإنسان يبعث على الألم . . .

ترى هل سنستطيع في هذه المباءة أن نقيم بناء الحق ؟ . . . أن نقيمه على أساس
. . . وأن نراه يوماً سامقاً مرفرف الراية مشرق الجنبات . . . ؟ !

من يستطيع ؟ !

أنت وحدك يارب ، أنت يا رب الأنفس ، ومالك هذا الملك ، ومنزل هذا الكتاب .
نحن وحدنا لا نستطيع . . . إن العين لتكِل في هذه الزوبعة من الظلام ، وإن
أنفاسنا تقطعها هذه الزلازل في الشرق والغرب . . . وهذه الهزات الأليمة في مجتمعاتنا
المنكوب . . . هذه الرؤوس الحاوية لا تدري شيئاً ، وهذه الأنفس العابثة الشاردة
لا تبالي بحق أو باطل ، وهذه الوحوش البشرية الوالغة في الدم الحرام ، وهؤلاء
(الطييون) « بلغة العصر ! » الذين يُعبث بهم ، وتُسْتَغَل غفلتهم وجهلهم ، ولا يدرون
أين هم ، ولا ماذا يراد بهم . . . ؟ مَنْ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ جميعاً سيدركه سر الله فيقيمه
غازياً كريماً ، أو يحطمه مجرماً لثماً عنيداً . . .

هي معركة رهيبة لم تبدأ بعد ، ولا تزال الأيام تصنع جندها عن يمين وشمال . . .
يا عين الله ! ماذا ترين ؟

اغفرى زلاتنا وعثراتنا . . . استرى عوراتنا . . . باركي هذا الخير في نياتنا . . .
ولا تتخلي عنا يا عين من لا ينام . . .

ليس شكاً يا عالم السر والنجوى . . . ولكنه شكوى

« اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان »

الحركة الوهابية

مالها، وما عليها

للاستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

هى حركة عربية صرف نشأت فى قلب جزيرة العرب . وإذا كان تاريخ نشأتها يرجع إلى أواسط القرن الثامن عشر ؛ فإنها لم تصبح قوة يرهب خطرها إلا منذ عام ١٧٩٠ بعد أن تم الاستيلاء على نجد ، ثم أخذت تدق على أبواب الأقطار المجاورة وهى العراق والشام والأحساء والحجاز ونجران . ولم تصبح قوة « دولية » تنذر بنتائج دينية وسياسية خطيرة ، وتكاد تهدد بقلب النظام القائم فى العالم الإسلامى كله إلا خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر . أما قبل ذلك فكانت حركة محصورة داخل حدود الجزيرة « محلية » لا يكاد العالم الخارجى يعرف أنباءها ، أو يدرك حقيقة مبادئها .

مؤسس الدعوة :

ومؤسس هذه الدعوة هو « محمد بن عبد الوهاب » ولد فى بلدة « العُيينة » من إقليم العارض بنجد عام ١٧٠٣ . وتلقى العلم فى موطنه ، ثم رحل فى سبيل الدراسة والمعرفة إلى المدينة ، ومكة ، والأحساء ، والبصرة ، وبغداد ، ودمشق ، وقيل فارس أيضاً ؛ فاكتسب من سياحاته العديدة علماً غزيراً ، وخبرة واسعة . ووقف على أحوال العالم الإسلامى ، ثم قارن بين ما آلت إليه حاله وما كوّنه فى ذهنه من أفكار عن المثل الدينية الصحيحة ؛ فكانت نتيجة ذلك هذا المذهب الجديد الذى عرف به وحمل اسمه ، وكان سبباً فى خلق هذه الحركة الإصلاحية الخطيرة وقد توفى فى سنة ١٧٨٧ .

حقيقة المذهب :

والمذهب الوهابى ليس « مذهباً » بالمعنى الصحيح : فهو لا يعدو أن يكون « تفسيراً » أو وجهة نظر معينة فى فهم بعض نواحي الدين الإسلامى ، وهو لا يخرج فى مجموعه عن حدود المذاهب السنية المعترف بها . فالوهابيون يتبعون فى فروع الأحكام —

أى فى الفقه — مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وفى العقائد : مذهب أهل السنة ، وبخاصة كما قررهما وفسرها الإمام السنى العلامة « ابن تيمية » . « وابن تيمية » هو الأستاذ المباشر لابن عبد الوهاب — وإن فصل بينهما أربعة قرون — فقد قرأ كتبه وتأثر كل التأثر بتعاليمه ؛ ولم تكن دعوته فى حقيقتها إلا تجديد آرائه ، وتحقيقاً لمبادئه

المبادئ الأساسية :

وجوه الدعوة الوهابية ، أو المبادئ الأساسية التى تدعو إليها هى : تنقية معنى التوحيد من كل شوائب الشرك ظاهرة وخفية ، وإخلاص الدين لله وحده . ويتفرع على ذلك إنكار الشفاعة والوسيلة فى هذه الحياة الدنيا ويعد من خفى الشرك : اعتقاد أن الموتى لهم تصرف ، أو أنهم ينفعون أو يضررون ، والالتجاء إليهم ، والاستغاثة بهم ، وتعظيم قبورهم وبناء الأضرحة والقباب عليها . ومما يدخل فى هذا الباب أيضاً : عدم الغلو فى تمجيد الرسول صلى الله عليه وسلم بما يخرج عن حدود الطبيعة البشرية ، وتحديد معنى « الرسالة » التى كلف بإبلاغها .

ثم هم يحاربون كل أنواع المنكرات ، وينبذون كل البدع التى دخلت فى العصور المتأخرة ، وليست من الدين فى شيء ، ويعلنون عدم مشروعية المكوس والمظالم التى يفرضها الولاة ، ويدعون إلى إبطال التعامل بالربا ، ويحرمون شرب الدخان ، ويشيرون على كل مظاهر الترف التى تؤذن بالانحلال ، وتتنافى مع معانى الرجولة .

ومن حيث مصادر العقيدة : يرون الرجوع إلى مذهب السلف فى فهم الدين ، وتفسير آيات القرآن ، وأحاديث الرسول . فهم فى الحقيقة ينادون بالرجوع بالدين إلى مذهب البساطة أو الفطرة ، ويكرهون التعقيدات التى أدخلها « المتكلمون » و « الفلاسفة » و « الصوفية » . ومن أجل ذلك فهم يعتبرون الكتاب والسنة هما دستور الشريعة الوحيد ، ولا يقرون الالتجاء إلى غيرها . ويذهبون إلى أن « باب الاجتهاد » مفتوح ، وأن لكل مسلم الحق فى أن « يجتهد » لفهم دينه ، وعليه أن يعد نفسه ليكون أهلاً لذلك .

ثم هم يرون ضرورة القيام بواجب « الجهاد » .
ولكنهم فى نفس الوقت يتوسعون فى معنى « الكفر » ؛ فيرون أن العقيدة وحدها لا تكفى للحكم لصاحبها بالإيمان ، وأنها يجب أن تكون معززة بالعمل .

وأن كل عمل يتضمن أى معنى من معانى الشرك — ولو عن غير قصد من صاحبه — يفسد عقيدته ، ولا يجوز أن يعد فاعله مؤمناً . وبناء على ذلك يمكن أن تندرج طوائف كبيرة من المسلمين تحت هذا الحكم ، فيكونوا ممن يجب محاربتهم أو إعلان الجهاد ضدهم .

موجز تاريخ الحركة :

أما موجز تاريخ الحركة فهو أن الشيخ « محمد بن عبد الوهاب » بعد أن استقر به النوى في بلدته ، قام يدعو إلى مذهبه ، فاضطهده أميرها وهو من آل « معمر » بإيعاز من رئيس « بنى خالد » فى الأحساء ؛ فاضطر إلى الهجرة ، وقدم إلى « الدرعية » فلقبه أميرها « محمد بن سعود » فاعتنق مذهبه ، وتعاهد الرجال على أن يعملوا معاً لنصرة هذا الدين الحق . وكانت هذه الهجرة حوالى سنة ١٧٤٠ . وقد أوفى « ابن سعود » بعهده فظل يجاهد من أجل الفكرة حتى مات سنة ١٧٦٦ خلفه ابنه « عبد العزيز » .

ويحسن أن نشير هنا إلى أن « ابن سعود » كان قبل وفود الشيخ عليه أميراً كغيره من أمراء العرب : أى كأمر « بنى خالد » بالأحساء أو « المتفق » فى العراق أو « معمر » فى العينة أو « شمر » فى الشمال أو غيرهم . ولكن الله أراد له الفتح والغلبة بقبول هذه الدعوة . وقد رأى « عبدالعزيز » أن يوطد الدعوة فى موطنها أولاً فعمل على ضم إقليم « نجد » وأخذ يرسل الرسل لنشر الدعوة بين قبائل العرب ، وفى العراق والحجاز وحوالى عام ١٧٩٠ أصبحت الدولة السعودية أقوى دولة فى قلب جزيرة العرب ، وبدأت تتطلع إلى الفتح والانسياح عبر الحدود : ففي عام ١٧٩٣ تغلب عبد العزيز على « الأحساء » وأزال بنى خالد عنها ، وظل يرسل الغارات تلو الغارات لغزو ضواحي العراق والشام ؛ فأخذت عشائر العراق ووالى بغداد أيضاً « سليمان باشا الكبير » تحس بالخطر من جانب الصحراء ، وكذلك الشريف « غالب » بن الشريف « مساعد » أمير عكة والحجاز . وبعث السلطان نفسه من « الإستانة » يبحث واليه على بغداد للاستعداد لمجابهة هذا الخطر .

فبدأت هذه القوات تتحرك : ففي عام ١٧٩٧ جرد « ثوينى » شيخ « المتفق » حملة اجتاز بها حدود « الأحساء » وكاد يستولى على معظم مدنها . ولكن عبداً زنجياً من حاشيته اغتاله فى الطريق ؛ ففترقت الحملة شذر مذر .

وفى نفس السنة قام « غالب » بحملة من جهته فهزم شر هزيمة ، واضطر إلى

التراجع وعقد الهدنة ؛ على أن يأذن لآل «سعود» والوهابيين بالحج ، وتظاهر بإطاعة أوامرهم . وفي العام التالي ١٧٩٨ نهض « سليمان باشا » والى بغداد نفسه لحمل العباء ، فأرسل حملة كبيرة تحت قيادة وكيله على باشا « الكرخيا » ولكنها لاقت الأهوال في الصحراء : من العواصف والظمأ والجوع وغارات البدو المفاجئة ؛ فأجبر على التقهقر ، ورضى من الغنيمة بالإياب ، واكتفى بعقد هدنة « شفوية » بينه وبين الأمير «سعود» ابن عبد العزيز كان أهم شروطها الإذن للعراقيين بالحج ، ثم عاد إلى بغداد سنة ١٧٩٩

وفي عام ١٨٠٠ تمكن عبد العزيز من بسط نفوذه على « البحرين » وتوجه سعود في نفس العام إلى « مكة » لأداء فريضة الحج — وهكذا حين بدأ القرن التاسع عشر كانت الدولة السعودية قوة هائلة — وأخذ الولاة في أطراف الجزيرة يوجسون خيفة من أمرها ، ويتوقعون شرا من تقدمها . وفي عام ١٨٠١ وقعت هذه الحادثة المؤسفة وهي إغارة الوهابيين على « كربلاء » وانتهاب ما في ضريح « الحسين » من الهدايا والنفائس ، وقتل عدد من الأنفس . فكان لهذه الحادثة دوى كبير في جميع أنحاء العراق ، وفي دوائر الشيعة ، وفي العالم الإسلامي قاطبة . وكانت الدعوة ضد الوهابيين نشيطة وقوية ؛ فأتى هذا الحادث فزاد في شعور الكراهية والعداوة ضدهم . وفي عام ١٨٠٣ تمكن « عبد العزيز » من فتح مكة غير أن فرحته لم تتم ؛ فقد اغتاله بعد أشهر قليلة أحد رجال الشيعة من الفرس إنتقاما لما فعله « بكر بلاء » وحينئذ تولى ابنه «سعود» وكان هو العضد الأيمن لأبيه في حياته ، وعلى يديه تم أكثر الفتح ، وبعد أكبر رجال هذه الأسرة ، وفي عهده بلغت الدعوة الوهابية أوجها ، والدولة السعودية ذروتها . فأعاد الكرة على مكة سنة ١٩٠٥ ودخلها منتصرا ، ثم استولى على المدينة أيضاً ، فصار سيد الحجاز كله . وهكذا أصبح خادم « الحرمين الشريفين » بدل سلطان « الإستانة » والتحكم في كل قبائل الحج التي ترد من جميع نواحي العالم الإسلامي ، وصار معظم الجزيرة الآن تحت قبضته ، ولم يبق إلا أن يتطلع لوثبة أخرى خارج حدودها : في العراق أو في الشام . هذا هو موجز تاريخ الحركة الوهابية منذ بدء قيامها إلى نجاحها في هذا الدور الأول .

التقدير والأثر التاريخي :

والحكم العام على هذه الحركة : هو أنها حركة دينية إصلاحية . ولكن أخذ عليها أنها سعت إلى تحقيق أغراضها بعنف ، واعتمدت على القوة العسكرية وحدها ، ولم تحاول أن تجتذب قلوب الناس ، ولم تعبأ بأصول السياسة أو قواعد « الدبلوماسية » وكان

طابعها التعصب فلا تعترف بوجهة نظر الغير ، ولا تقبل معه مساومة ولا مفاوضة ، وتشددت في فهم الدين فضيقت معنى «الإيمان» بحيث يخرج منه عدد كبير من المسلمين ؛ ومن ثم تجب محاربتهم وتستحل دماؤهم وأموالهم . ثم هي حركة محدودة الأفق : ركزت كل جهودها في ناحية خاصة من الدين ، وتركت كثيرا من الأصول والمسائل التي لا تقل عنها ، بل تفوقها في الأهمية . وفي مقاومتها للبدع على اختلاف أنواعها كان لا يبد أن تنبذ كثيرا من الوسائل التي تؤدي إلى رقي الحضارة وتقدم العمران . ولم يكن القائمون بها أ كفاء — لو أتيح لهم النجاح إلى حد أن يحكموا العالم الإسلامي — لأن يجاروا النهضة الحديثة في ميدان الصناعة والاختراع .

ولكنها مع هذا كله ، وفي حدودها المعينة ، كانت نهضة أخلاقية شاملة ، ووثبة روحية جريئة ، ودعوة إلى الدين الحق والإصلاح . وقد أيقظت العقول الراقدة ، وحركت المشاعر الخاملة ، ودعت إلى إعادة النظر في الدين : لتصفية العقيدة ، وتحرير الإيمان ، وتطهير العقول من الحرافات والأوهام . وقد احتوت على مبدئين ، كان لهما أكبر الأثر في تطور العالم الإسلامي وتقدمه ، وهما : الدعوة إلى الرجوع إلى مذهب السلف مع الاعتماد على الكتاب والسنة ، وتقرير مبدأ الاجتهاد . فكان هذان البدآن أساسا للنهضة فلسفية روحية . والواقع أن كل حركات الإصلاح التي ظهرت في الشرق في القرن التاسع عشر ، كانت مدينة للدعوة الوهابية بتقرير هذه الأصول . ويمكن تحديد الصلة بينها أيضا وبين كل من هذه الحركات : إما عن طريق الاقتباس ، أو المحاكاة ، أو مجرد التأثير .

وإذا آثرنا التعبير السياسي : فإن هذه الحركة كانت « ثورة » على الاستبداد ، وصوت احتجاج على الضعف والانحلال الذي آلت إليه حال العالم الإسلامي حينئذ . وأول تحد لخلافة « آل عثمان » وأول حركة « عربية » تحريرية لرفع نير السيادة التركية ؛ فهي في القرن التاسع عشر تقابل الثورة العربية في القرن العشرين — غير أن الأولى كان طابعها دينيا ، والأخيرة طابعها سياسي .

من خصائص حضارة الإسلام

للأستاذ محمد أسد « ليوبولد فايس »

الوزير المفوض للباكستان في هيئة الأمم المتحدة

ترجمها عن الإنجليزية « الأستاذ محمد محمود غالى »

« خلص الأستاذ أسد (١) في المقال الماضى إلى أن تاريخ البشر جميعا لم يشهد حضارة يستطيع الباحثون أن يحددوا بدء وجودها وأن يتابعوا الظروف والعوامل التى صاحبت مبدأها ونشأتها سوى حضارة الإسلام . وهو يذكر فى هذه الحلقة كيف تفردت هذه الحضارة فى أصولها وخصائصها ، وسامت فى أهدافها وغايتها ووسائلها كل ما عداها من حضارات »

المترجم

قد يكون انفراد حضارة الإسلام بهذه الميزة التاريخية أمراً يستوقف النظر من الناحية العلمية المجردة . ولكن القدرة على تحديد منشأ حضارتنا على وجه دقيق ، ومعرفة الزمن والطريقة التى بدأت بها أمر أجل من أن يكون ذا خطر من الوجهة العلمية المحضة . ففي هذه القدرة ، وعن هذا العلم نستطيع أن نفهم ماضى حياتنا ، وأن نعد لحاضرنا ومستقبلنا جميعا . فلسوف نستطيع أن نرى على هذا الضوء الجديد حضارة الإسلام فى حداتها الأولى وهى ما زالت غضة مشرقة لم يداخلها ما تسكار عليها بعد ذلك من إضافة وتحريف شوها كثيرا من معالمها وملاحمها ، ونستطيع أن نعين تبعاً لذلك أصولها ومقوماتها ، وأن نتبين أهدافها ومنازعها الأولى . وليس من اليسير أن نتبين ما كانت تهدف إليه حضارة من الحضارات بعد أن تجوز فى مراحل التطور ما ينأى بها عن أصولها الفكرية والاجتماعية التى قامت عليها ؛ لأن طغيان أصول فكرية واجتماعية جديدة — ما كانت لتصل بهذه الحضارة بسبب فى بادئ أمرها — لابد أن يعوق فى هذه الحضارة طاقتها المخترنة ، وروحها الدافعة عن أن تتجه وجهتها الأصلية الأولى ، ويدفعها إلى وجهات وطرائق جديدة تغاير اتجاهها الأصل تمام المغايرة ، وفى ذلك كله ما يثبت أن كل حضارة حية شديدة المرونة سريعة التغير والتشكل .

(١) كتب إلينا بعض حضرات القراء يسألون عن ديانة الأستاذ أسد قبل أن يعلن إسلامه والجواب أنه كان يهودياً .

وقد يكون تحديد الخصائص الأولى « للحضارات التقليدية » غير ذى خطر على الإطلاق . وحين أتحدث عن الحضارات التقليدية فإنما أقصد بها كل حضارة قامت على نزعات جنسية أو إقليمية وتقاليد متوارثة .

وتبدو أهمية إشاعة العلم بأهداف حضارة الإسلام ، والبصر بخصائصها وأحكامها بين أفراد المسلمين في أن هذه الأهداف والغايات ، وماتدفعان إليه من منهج خاص لحياة مجتمعات المسلمين هما وحدهما مصدر حيوية هذه الحضارة ، ومبعث طاقتها الفكرية . وإذا أهمل العلم بأهداف حضارة الإسلام وغاياتها ، وترك فهمها نهبا لمختلف عوامل الطمس والتشويه أضحت هذه الحضارة مجردة من مبادئها الأولى منسلخة عن مناهجها المثلى ، وبهذا تنزع عن صفاتها الإسلامية ، ويكون مآلها التحلل والتفكك إلى مجموعات متباينة من الحضارات القومية التي تتبع حينئذ ما استكن في نفوس أبناء كل إقليم منها من تقاليد متداولة، ونظم متوارثة درجوا عليها ، ولا تتصل هذه الحضارات القومية فيما بينها بسبب سوى ذكريات خافتة لأصل واحد ، ومنهل أصيل نبعت منه في ماض غامض مبهم صحيح

يتضح من هذا أنه من ألزم الواجبات علينا في هذا العصر تحديد بدء حضارة الإسلام تحديداً دقيقاً ، وحصر ما اشتملت عليه من نظم وتعاليم حصراً شاملاً إن أريد لهذه الحضارة دوام أو بقاء . ولم يكن بالمسلمين حاجة إلى هذا الحصر والتقصي أكثر من حاجتهم اليوم ؛ فلقد انقضت بيننا اليوم وبين عهد الرسول قرون طويلة قامت خلالها مدارس فكرية كثيرة كان لها من الآراء ما ينقض بعضه بعضاً ، وكلها جهدت أن تحدد نظم الإسلام ومناهجه في الحياة ما وسعها الجهد . ولقد ظلت هذه الاختلافات حتى عهد قريب قاصرة على البحث في أصول العقيدة ، وأشكال الدين وطقوسه ، ولم تكن تلمس مظاهر الحياة العملية عند المسلمين ، فتركت مظاهر هذه الحياة دون أن تقر بها ، أو تعرض لها يبحث أو استقصاء أو جدل ؛ فكانت هناك إلى عهد غير بعيد وحدة في نظم المجتمعات الإسلامية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وقوانينها المدنية والجنائية شملت العالم الإسلامي بأسره ؛ حتى إن السلم في الهند وإيران كان لا يزاله شعور الأخوة الذي يحس به في بلاده إذا نزل أرض مصر أو تركيا أو مراکش ، كما كان من اليسر على المسلم من بلاد الأتراك أو أرض الشام أن يرى نفسه حين ينزل ببلاد الهند أو بلاد العرب بين إخوة أبرار . وكان مصدر الشعور بالأخوة في هذه الأقطار جميعاً أن الشريعة الإسلامية كانت قائمة غير مهملة ، نافذة غير معطلة . ولم يكن هناك بين هذه الأقطار في تطبيق الشريعة إلا خلافاً إقليمية يسيرة تتناول تفاصيل التشريع وفروع

الأحكام ، فكانت الشريعة بذلك — رغم ماغشاها من قصور وما أصابها من أسن باعدا بينها وبين بساطتها الأولى على عهد الرسول وخلفائه الراشدين — كانت الشريعة قيم ومعايير استمدت مغزاها وأهميتها من تداولها بين أهل تلك الحضارة طبقة بعد طبقة ، وجيلا بعد جيل ، ولم تقم على مبادئ أخلاقية ، أو أسس فكرية . فلا تعتمد أمثال تلك الحضارات التقليدية في اتصال حيوتها وبقائها على بقاء منازعها الأولى ، وثبات مبادئها ومناهجها ؛ إنما تعتمد في ذلك على بقاء طاقتها المبدعة وحدها دون نظر إلى ما تتخذه بعد ذلك من مناهج وأساليب ، أو ما يطرأ عليها في المستقبل من محور في أهدافها وغاياتها .

وقد أوجدت هذه الحضارات التقليدية ضرورات عنصرية أو إقليمية ، وسيطرت عليها جميعا في الماضي والحاضر حوافز مشتركة في جنس واحد أو أجناس من البشر اتحدوا في الإقليم والبيئة ؛ فدفعهم هذه الحوافز على تحقيقها . وقد تكون هذه الحوافز والدوافع مستمرة لا تتجلى واضحة ، ولكنها مع ذلك قابلة للتطور والنمو والارتقاء . وما مثلها في ذلك إلا كمثل الشجرة حين تنمو وترتفع على سوقها مستمدة غذاءها من التربة والهواء ، متجهة بأغصانها وفروعها وفق ما تدفعها إليه حيوتها وطاقاتها الكامنة . ولئن استطعنا أن ندرك آثار هذه الحيوية وتلك الطاقة الكامنة ، وأن نلمس هذه الآثار إلا أننا لنستطيع أبداً أن نلمس حقيقتها وكنهها . ولعوامل التربة والمناخ كذلك أثرها الذي لا ينكر ؛ فلا نستطيع أن نقطع بادئ ذي بدء في أي اتجاه سيضرب كل غصن من أغصان هذه الدوحة ، ولا إلى أي مدى ستعمر طاقته الحيوية ، وقابليته للنمو ، ولا يغنينا في كثير أو قليل في هذه الحالة أن نسأل عن اتجاه أي غصن من أغصانها ؛ لأنه ليس في نمو هذه الأغصان أو اتجاهها ما يشير الاهتمام ، أو يدعو إلى التساؤل ، ولا يقع نمو إحداها أو نموها جميعا تحت طائلة علمنا قدر ما يقع في نطاق طاقتها المخزنة وقدرتها على النمو .

هذا في الحضارات التقليدية . أما في الحضارات ذات المبادئ الخلقية والأسس الفكرية — وحضارة الإسلام إحداها دون شك — فالأمر يغير ذلك تمام المغيرة ، فحضارة الإسلام لا تستمد وجودها من الدوافع الخاصة التي تدفع بأمة من الأمم أو جنس من الأجناس إلى إيجادها إرضاء لمواهبها وتحقيقا لقدراتها . وإذا كان لهذه الحضارة أن تبعث من جديد إلى الواقع الملموس ؛ فلا ينحصر خطرها وأهميتها في قيامها في جنس بعينه دون سائر أجناس البشر ، بل تقوم على ارتباط كل ذكر وأنثى من أفراد البشر ارتباطا واعيا مستتبصرا — دون نظر إلى جنس أو بيئة — على أساس من

الإيمان بالله ، والاستقامة في حياتهم على ما جاء به الإسلام من تعاليم ونظم . وقد ظلت بذلك سائدة مهيمنة لم ينل من سلطانها شيء طوال عشرة قرون سيطرت فيها على كل شأن من شئون المسلمين ، وكل منجى من مناحى حياتهم .

ولكن الحال في الدول الإسلامية قد تغير اليوم تغيراً واضحاً عميقاً ؛ فلقد اشتدت الصبغة المحلية الإقليمية في كل قطر من أقطار الإسلام ، ولا زالت هذه الصبغة آخذة في القوة والطغيان ؛ حتى اكتملت في كل دولة من دول الإسلام اليوم قومية وطنية يراها وينمىها ما أخذت هذه الدول عن الغرب من أوضاع ونظم وآراء حتى انتهى الأمر بهذه الاختلافات التي عاوتها أول الأمر ظروف المناخ واللغة والأمزجة بين أجناس المسلمين إلى إنكار صريح جرى لكل مظاهر الوحدة في حضارة الإسلام ، وحتى برمت القوميات الموضعية الضيقة لدى العرب والهنود والآراك بقومية الإسلام وصبغته الشاملة . ولئن كان تقليد الحضارة الغربية أحد أسباب هذا التنكر لصبغة الإسلام وخصائص حضارته ؛ فإن قعود العلماء عن وصل حياة المسلمين بتعاليم دينهم سبب آخر لا يقل شأنًا عن سابقه بحال من الأحوال .

هكذا سارت الحال بالمسلمين حتى أوردوا حضارتهم وأصولها محنة طاحنة تدور في هذه الأوقات العصيبة ، ويتقرر على ضوئها اليوم صلاحية الإسلام للبقاء . ولئن سكنت بعض المسلمين اليوم عن الجهر والإعلان عن تنكرهم لشرعية الإسلام ؛ فلن يستطيع بصير أن ينكر أن شكوكهم وريبهم في صلاحية منهجها قد أخذت عليهم سبيل حياتهم من كل جانب . وإن يجدنا نفعا اليوم أن نستنهض في مسلمي العالم إيمانهم بما بين أيديهم من مظاهر الإسلام . إنما السبيل إلى استنهاض المسلمين بعث عقلي جديد ، وبقظة نفسية شاملة تقوم على اكتشاف أصول الإسلام ، واستشراف مناهجه من مصدره الأساسيين : كتاب الله ، وسنة رسوله .

توجيه كريم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِقَامَةُ حَدِّ بَارِضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِيهَا مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا »

سجّات فكر

لسعادة عبد الوهاب بك عزام

سفير مصر في الباكستان

فاتحة

يدور الفلك وتمر السنوات ، وتعدو بنا الأيام ، والإنسان مشدوه بعدوها ،
يكاد يُغلب على عدّها . وهو كراكب السفينة الماخرة السريعة . ينظر وراءها
فإذا البحر مزبد والماء مسرع ، وإذا صفحة من اللج بعد صفحة ، ولجّة من البحر
بعد لجّة لا تستطيع توقفاً ولا تريثاً . ورحم الله الشاعر أسد الله غالب إذ يقول :
أسوم جواد العمر ريثاً وماله ركب برجلي أو غنات بأعلى
ومن مات كمن سقط على اللج ، تجوزه السفينة ، ويبعد عنه الركب ، وينأى عن
البصر ، ثم عن الفكر .

وليس يثبت في هذا الجريان إلا عمل صالح يبقى سنّة في الحياة ، وإلا قول طيب
يقي هدى للأحياء .

فمن شاء ألا تمضي به الأيام سدى ؛ فليجهد أن يباري الأيام ويسابق الزمان مسارعة
إلى الخيرات ، وبداراً إلى الحسنات بكلمة طيبة ، أو عمل صالح ، أو علم ينفع الناس ،
أو فكر يضيء في أرجاء هذه الأرض .

إن الإنسان ليغفل فيعطل فكره أو يده . ولكن الأيام لا تقف والفلك لا يغفل .
فاجهد ما استطعت أن يدأب فكرك ويدك نصرة للحق وفعلاً للخير .

الحق يجمع والهوى يفرق

الحق في كل أمر محدود ، والباطل كثرة لا تحدّ . والعدل في كل قضية واحد ،
والهوى نزعات لا تعدّ .

فإذا أخذ الناس بالحق اجتمعوا ، وإذا آثروا الباطل تفرقوا . وإذا قضوا بالعدل
اثقفوا ، وإذا مالوا إلى الهوى تباغضوا .

وإن ما تسمع وترى من خصام وافتراق ، وبغض وشقاق ، وجدال ومراء ، وتنافر وعداء . كل أولئك مما آثر الناس الباطل ومالوا مع الهوى .

ودواء هذا الداء أن يعترف الناسُ الحقَّ ويصَّروا به ويرغبوا فيه ، حتى يُحبَّوه فيؤثروه ، وأن يصَّروا بالعدل ويعرِّنوا عليه فيطيعوه ، وأن يكشف لهم الباطل في شناعاته ، والجور في سيئاته ، ويعلموا كيف شقي بهما الناس ، وأخرب بهما العمران .

فسَّروا للناس هاتين الآيتين بالقول والعمل :

« بأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .
« وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

دهان على وبر

يقال في المثل للدواء الذي لا ينجح لأنه لا يصيب موضعه ، ولا يتجاوز الظاهر إلى الباطن : إنه دهان على وبر . يعنون أنه لما يطلى الجمل الأجرى على وبره . والدهان لا ينجع ما لم يقع على موضع الداء .

وأنت تقرأ كل يوم عن جرائم كثيرة ، ومخاز شتى تدل على مرض في النفوس أو الجماعة ، أو خلل في النظام . وترى كيف يتبع الشرطى الجناة حتى يأخذهم ، وكيف يمسخهم القانون حتى يعاقبهم ؛ ولكن سيل الجرائم لا يكف ، وسلسلة المخازى لا تنقطع . إن الشرطة والقضاء يُخيفان ولا يصلحان ، ويعاقبان ولا يربَّيان . ويأخذان المجرم بما اجترح إن ظفروا به ولكن لا يدوايان المرض الذى ينشأ الجرائم .

الشرطة والقضاء يعددان الحادثات ، ويعاقبان عليها . ولكن الأمة لا تعنى بالتأمل في أسبابها والقضاء عليها ، وكفاية الناس شرها ؛ وإنما يُكفى الناس شرها بالمداواة بالمجازاة .

ستزداد الجرائم على رغم الشرطة والقضاء إن لم تعالج مصادرها في النفس ، وفي سنن الجماعة . ستزداد إن لم يتصل الدواء بالجسم باطنه وظاهره . ستزداد إن اكتفينا بهذه الوسائل التى هى دهان على وبر .

نظرات في التربية

للاستاذ عبد العزيز عطية

المراقب المساعد بمنطقة دمنهور التعليمية

(١) التربية والتعليم

لكي نسير في تربية هذه الأمة على أسس سليمة ، وسبل قويم لا بد أن نتبع البحوث العلمية قديمها وحديثها في تربية الشعوب قديماً وحديثاً ، ولا بد من النظر في الوسائل الموصلة إلى الغرض لتتعرف سليمها وسقيمها ، ومعوجها وقويمها . ولدينا في الفلسفة الإسلامية وغيرها من الفلسفات القديمة والحديثة الكثير من الوسائل والطرق التي اتخذت أساساً لإصلاح الشعوب وتكوينها تكويناً نافعاً ، سواء في معاهد العلم ، أو في خارجها حيث تشتبك مصالح الناس ، وتصطرع رغائبهم ، وتشتجر مساعيهم لبلوغ غاياتهم في الحياة بحسب ما يهيأ من الوسائل للأفراد والجماعات .

فقد تكون ظروف الأمة ، وأحوالها المعيشية ، والاجتماعية ، والإقليمية داعية إلى اتخاذ لون من ألوان الحياة يغلب عليها وتعرف به . فقد تتخذ الأمة طريقاً إلى الاستعمار مثلاً فتعود أبناءها الزوج إلى البلاد النائية ، وتغريهم بالاستيطان في أراض واسعة ذات خيرات وفيرة من مواد أولية أو محصولات مختلفة ، وشعوبها ما تزال مقيدة في عيشتها متأخرة في صناعاتها ومواصلاتها ومناحي عيشتها ؛ فيزولون بها ليثمروا المال والعقول والصناعات في هذه الأرض الحصبة ، كما نشاهد في الأمم الاستعمارية قديماً وحديثاً .

وقد تكون الأمة بحال تدعو أبناءها إلى العكوف على استثمار أرضها ، وشواطئها وبحيراتها ، وتكثير صناعاتها ، وتنمية مواردها كالأمم الزراعية ، والأمم الحديثة التكوين ، أو التي أفلتت من نير الاستعباد غير بعيد .

وقد تكون الأمة ذات رسالة دينية تدعوها إلى غزو الأمم غزواً أخلاقياً ودينياً وأدياً — لا طلباً للمال والكسب والتوسع — فيدعوها ذلك إلى اتخاذ وسائلها الخاصة التي تبنتها تلك الرسالة ، ودعت إليها ، وحرّضت أتباعها على اتباعها ؛ كالأمة الإسلامية منذ ظهر الإسلام ، وقد تكون الأمة ذات مبادئ خاصة تراها أحسن الوسائل لجمع شعب أو شعوب عليها ؛ فتسعى وسعيها في نشر مبادئها ، وتعميم مذهبها لدى أمم كثيرة ، وشعوب

مختلفة بوسائل تبتكرها لتحمل الناس على الالتفاف حولها ومشايعتها ؛ كما نرى في الدولة البلشفية الآن ، أو الدول الديمقراطية الأوروبية وأمريكية .

وقد تكون الأمة ذات وضع سياسى خاص بسبب موقعها الجغرافى ، أو منابع الثروة المعدنية مثلا ؛ فيسبل لعاب أمم كثيرة على احتضانها أو الاستئثار بخيراتها ، أو موقعها ، فيوجب ذلك عليها أن تتخذ من الوسائل والحيلة والتشبث بالاستقلال ، وعدم التفريط فى مواردها ما يجعلها تقاوم هذه العوامل ، وترد عنها هذا الكيد ؛ فيجملها كل ذلك عناء ومشقة فوق ما يحملها على مواجهة هذا الهجوم بقوة الرأى والتدبير والحكمة لكي تبقى سليمة البنيان حصينة الحدود ؛ وتلك كمصر وباكستان وإيران وغيرها .

لذلك كله تتنوع أساليب التربية والتعليم فى الأمم والأعصار؛ فتنتهج كل أمة ما يناسبها بحسب ظروفها وأحوالها واتجاهها . ولذلك يخطئ من يحاول تطبيق وسائل تعليم أمة وتربيتها على أمة أخرى تخالفها فى الوضع الجغرافى ، وفى بسطة العيش وموارد الكسب ، ووسائل الحياة . والذين ينقلون إلينا من البلاد الأجنبية نظاما كاملا ليطبّقوها بمدارسنا ، وعلى شعبنا يظلمون الشعب ظلما فادحا ، ويظلمون التعليم ظلما كثيرا ؛ فيضيعون الجهود والمال والزمن على الأمة والأفراد فى غير طائل ، وتذهب الأمة ضحية هذا الجهل الذى لبس ثوب العلم والمعرفة ، ويضاعف الحسارة والظلم أن تتعدد هذه التجارب الفاشلة بتعدد القائمين على التعليم . وكثير من الذين يتولون أمور التعليم ثم ما يلبث غيرهم أن يزيلهم عن مناصبهم ؛ فينقض الآخرون ما أبرمه السابقون : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » . نعم لقد وضع فلاسفة الأخلاق ، وعلماء التربية قديما وحديثا قواعد ما أحرأها أن تكون لبيئات خاصة تزدهر فيها ، ولا حرج على الآخرين أن يجربوا منها ما ينفع فى بلاد آخر ، فإن أثمر فى موضع التجربة فيها ، وإلا فلتكن الفلسفات قواعد عامة لتختار كل أمة ما يناسبها فى بيئتها وأحوالها .

ولهذا كان لا بد للباحث فى تربية الأمة المصرية وتعليمها أن يضع نصب عينيه أن لهذه الأمة دينا قويا يجب أن يقودها فى حياتها بما يشملها من مبادئ سامية ، وأوامر ونواه قوية رادعة ، تسيّره داخل المنزل وفى الشارع والمصنع والحقل والسوق ، وفى جميع نواحي الحياة . نعم لابد أن يعرف أن الأمة المتدينة أقرب إلى الإصلاح وأدنى إلى الهدى ، وأنها بقدر ما تنفذ من أمور دينها تقرب من أسباب سعادتها ، وأنها تفقد من الخير والرشد بقدر ما تترك من أوامر الدين ونواهيه ، وأن عزها وطمأنينتها ، ومجدها وغلبتها ، وسمو مكانتها فى طاعة أبنائها وحكومتها وقادتها لهذا الدين .

وكان على الباحث أيضاً أن يعرف أن لهذا الشعب لغة هي أشرف اللغات وأجدها وأوفاهها وأثبتها على الزمن ، وأن خلود هذه اللغة وعزها وعظمتها قد اكتسبت من طريق لم يتيسر لغيرها ولن يتيسر ؛ ذلكم هو القرآن الذي خلدها وشرفها وثبتها ، وسنة الرسول التي وضحت الكتاب وبيته للناس . وأن من يحاول أن يستنزل هذه اللغة عن مكاتها ، ويلبسها ثوب المهانة ، أو يضعها في غير الصدارة من المواد التي تعلم لأبناء الشعب ؛ فإنما يعمد سيفاً في قلب هذه الأمة ، ويهدم بنيانها ، ويقوض دعائم نهضتها . وذلك ما نراه — مع الأسف الشديد — في نهضة مصر الحاضرة .

وعلى الباحث أيضاً أن يعلم أن من يحاول أن يذيع في هذه الأمة رأياً أو خلقاً أو مذهباً أو بدعة تتنافى مع صالح الأخلاق وجميل العادات ، وتعاند تعاليم الإسلام الصحيحة ؛ فقد جهد أن يجعل هذه الأمة مع الشياطين ، وأن يسلك بها سبيل البرابرة ممن ترام في لبوس الآدميين ، وأخلاق المتوحشين .

ولقد جاء الإسلام بتعاليمه للناس كافة ، فأذاع على الأشهاد مبادئه الخالدة ، وحرر العقول والأفهام من قيود الدل التي كانت ترسف فيها ، ورفع أعلام الفضيلة ، ورسم للعالمين سبل الخير ، ودعا إلى المقاصد السامية ، وقاد الناس بدستور واحد جامع لحلال الخير ، حتى لا يتخذ كلٌّ إلهه هواه ، ويضل الناس في متهاتات الطمع والحسد والتناحر على العيش والحطام . جاء بذلك ، وحمل الناس على الاتباع في تربية صحيحة ، وهداية شاملة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

هذه التربية الموحدة من حيث المبادئ العامة هي التي يجب أن تسود العالم جميعاً . أما ما يناسب كل أمة في أمورها الخاصة من أحوال العيش ، وضروب الكسب فقد تركه الإسلام تضرب الناس فيه ؛ ليسلكوا سبله بعيدين عن المآثم ، محافظين على أصول الدين وقواعده . لكن حكمة الله اقتضت أن يختلف الناس : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » وليس في ذلك الذي ذكرنا ما يناقض لاحقه سابقه في اختصاص كل أمة بحال في تربيتها وتكوينها .

لذلك سزاعى فيما نكتب أن نستهدى فلسفة الإسلام ، ونستلهم روحه ، ونستوحى تعاليمه ؛ لنبنى على الأسس السليمة ، ونرسى على القواعد الثابتة بناء هذه الأمة ، بناء محكماً يشاد عليه صرح مدنية نقية زاهرة ، بعيدة عن العبث ، بعيدة عن الاضطراب .

ولما كان للوراثة والبيئة من الأثر البالغ في تربية الفرد والجماعة ؛ فإننا معرجون على بحث هذا الموضوع قبل الدخول في موضوع التربية والتعليم .

يقول الله سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين » . والسلالة الخلاصة ويقول : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ببتليه » والأمشاج الأخلاط ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . ولم يعد هناك شك لدى علماء الوراثة في أن الإنسان به من أمه وأبيه شبه في شكل الأعضاء والملامح ، وقد يزيد هذا الشبه أو ينقص . وقد اختلف العلماء في ميراث الإنسان لوالديه في الصفات والأخلاق والعادات ، وقيمة الذكاء : أى في الحياة العقلية . واختلافهم لا يصل إلى حد إنكار هذا الميراث ، إنما يتعلق بقيمته وأهميته في سلوك الفرد ، وتأثره به وتأثره بوجه حياته إلى ناحية معينة بالتقدير الذى ورثه : فالعالمان جواتون Francis Galton وكارل بيرسون Karl Person ومن على شاكلةهما يجعلون للوراثة الأهمية البالغة في سلوك الفرد ، وأمثال جون لوك J. Locke وشافيتسبرى Shaftsbury يجعلون لوراثة الخلق المتأصل في الآباء والأجداد أعظم الأثر في توجيه الإنسان نحو الخير أو الشر ؛ مما يجعله يعزى بين الخير والشر بنفسه . ولعل من فسر الرسول بالعقل في قوله سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ممن يعتقدون هذا الرأي . وغير هؤلاء علماء لم يجعلوا للوراثة تلك الأهمية إذ يقولون إن البيئة هى ذات الأثر القوى في حياة الإنسان . وعلى كل حال فلا بد أن نتتبع الوراثة والبيئة كليهما بشئ من التفصيل ؛ حتى نصل إلى الرأى الذى يجب الأخذ به .

والمراد بالوراثة أولاً وراثة الخصائص الجسمية ، ويقصد بها التشابه في الأعضاء واللون والملامح والصوت والحركات . وهذه نتيجة العوامل التى تحل في البيضة في اللحظة التى تتلقح فيها من الذكر في الرحم . ويقول العلماء إن الخلية للملقحة يكون فيها خيوط تسمى الكروموسومات Chromosomes وإن هذه الخيوط قد تنقسم إلى مناطق مختلفة تحمل كل منطقة منها نوعا من الاستعدادات التى منها ما يخص الأم ، ومنها ما يخص الأب ، وإنه لىكى تنمو هذه الخلية لا بد لها من بيئة صالحة هى الرحم تكون ذات حرارة ورطوبة وغذاء تهيء لها أسباب النمو والحياة .

ويرث الإنسان عن أبويه غرائزه واستعداداته ، ولكن لا يرث عنهما العادات والصفات المكتسبة — على رأى — إذ أن هذه توجد بها البيئة ، ولذا كان لا بد من ملاحظة غرائز الأطفال وتهذيبها لتبنى على أسسها عادات حسنة ؛ ليستطيع الإنسان أن

يعيش مع الناس . والمجموع العصبي — المتأثر كثيراً بالوراثة بطبيعته — يصدر عنه من الذكاء أو البلادة ، ومن الانفعالات ، ومن القوة والضعف العقلي ما يدين به الإنسان في غالب الأمر لأبويه القريين أو البعيدين . فالذكاء يورث ، وليس الذكاء إلا الاستعداد الذي يخلق مع الإنسان ، وإنه لكي يزدهر وينمو لا بد أن ينمى ويربى ، حتى يبلغ غايته وتلك هي الفطرة « فطرة الله التي فطر الناس عليها » ، « كل مولود يولد على الفطرة » وفي البذرة استعداد للنمو . إنما تصير نباتاً عندما تنهأ لها البيئة من حرارة ورطوبة وتربة صالحة ؛ فكذلك الإنسان . ويقول الدكتور القوصي في كتابه « أسس الصحة النفسية » : « وقد وجد الباحثون أن أبناء المشتغلين بالأعمال الفنية والإدارية أدكى في مجموعهم من أبناء المشتغلين بأعمال بسيطة ، أو يدوية أو آلية » ومن أصحاب هذا الرأي دارون ولا مارك وهربرت سبنسر . ثم يقول : « ووقوفنا على وراثة الذكاء أمر مهم ؛ لأن الذكاء عامل أساسي في التكيف بين الشخص ، وبين المحيط المادي والاجتماعي » .

لارتباط كثير من مشا كل التربية بمعرفة مقدار ذكاء الطفل .

وأما الأخلاق فأساسها هو الذي يورث . وأساسها الغرائز والمزاج المركب في طبيعة الإنسان . والمزاج نتاج التكوين الخلقى من العناصر التي يتركب منها الجسم ؛ فإذا غلبت مادة مخصوصة على المواد الأخرى غلب على الشخص مزاج ذو صبغة خاصة تؤثر في حياته تأثيراً شديداً . مثلها في ذلك مثل الدواء يركبه الصيدلى مختلطاً من مواد تختلف في اللون والطعم والرائحة ؛ إنما يغلب لون منها على بقية الألوان فينسب إليه ، ويغلب طعم منها على بقية الطعوم فينسب إليه ، وكذلك الرائحة . والبيئة التي يعيش فيها الإنسان هي التي تنمى ناحية من هذه النواحي وتزدهر فيها ؛ إذ الأخلاق سلوك الإنسان مع الناس . ومن ثم كانت العناية بالغرائز والاستعدادات واجبة الرعاية والتهديب . والبيئة ما يحيط بالإنسان في حياته من لدن وضع جراثيمته في الرحم : وهي طبيعية واجتماعية وروحية . والإنسان متأثر بها حتماً ؛ إذ الكائن الحي لا تتأق له الحياة إلا في بيئة خاصة تلائم ، وقد يكون وضعه في البيئة سبب الحياة أو الموت ، أو القوة أو الضعف ، أو الخمول والكسل أو القوة والنشاط ، أو التوجه في الحياة إلى ناحية خاصة لغلبة نوع من التأثير على العقل والوجدان ؛ فالإنسان الذي يعيش حياته في البادية غير الذي يعيش في الحضر في أخيلته ومعلوماته ومعاملاته لنفسه ولغيره . فالحياة العقلية والحقيقية تتأثر كثيراً بالبيئة التي نعيش فيها ، وليس العقل والخلق إلا ثمرة من ثمرات هذه الحياة . والبيئة الاجتماعية : مدرسية ومنزلية ، وفي خارجهما ، في الشارع والمصنع والمتجر ، وأقنية اللعب ، وفي الأندية والمجتمعات تؤثر تأثيراً شديداً في حياة الإنسان . كذلك البيئة الروحية

تؤثر كثيرا في حياة الفرد ؛ إذ الذي يعيش في جماعة تتحلى بأدب الدين ، وتتعلق بأهداب الفضائل لا بد أن يتأثر بها ، والذي يعيش في مرابع الشر ، ويشاطر الأشرار حياتهم ومعيشتهم لا بد أن يتأثر بهم ؛ ولذا ضرب الإسلام على أيدي العابثين بالأخلاق ضربا شديدا حتى لا يكونوا مثالا لغيرهم ، وجعل الحدود توقع على مرأى من الناس لتكون لهم فيها عبرة ، وجعل للذين يشيعون الفاحشة بالقول والفعل العذاب الشديد :

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » . كما جعل الأسوة الحسنة هداية للناس : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » وللورثة والبيئة علاقة قوية لا تنفصم عراها ، ولا ترث جبالها مادام الإنسان ، فهما تعملان معا في حياته . وعلاقتهما كعلاقة الجسم بالروح والحياة ، إذ لا تصور حياة بدون جسم ، ولا يذكر الجسم بدون الحياة فلا تنفك إحداها عن الأخرى ؛ لذا كان لا بد من رعايتهما معا في تربية الفرد ، وكان على الوالدين أن يورثا ولدهما جسما صحيحا ، وخلقاً كريما ؛ وعقلا سليما . ومن هنا كانت مسؤولية الأبوين أمام الله عظيمة ، وكان فضل الوالدين على ولدهما كبيرا ، وكانت الحكومة أيضا مسئولة عن التدهور الخلقي والعقلي والصحي في الأمة ؛ حتى لا يرث الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد إلا ما ينفع ، وعليها إذن أن تهنيء للشعب حياة صالحة ، بعيدة عن الرجز والآثام في حدود الآداب والأخلاق الكريمة ، والأوضاع الاجتماعية السليمة : تحكمه قوانين صالحة ، وتريه مبادئ ، وقويع شريفة . وهذا ما سنحاول بيانه في المقالات التالية إن شاء الله .

العظمة الحقيقية

إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز « الراديو » أو « التلفزيون » الذي يملكه ، ولا السيارة التي يركبها ، ولا جهاز الغسيل الآلي ، ولا القبلة التي يدمر بها الحياة على وجه الأرض ... وإنما هو أثر ذلك كله في مشاعره وعواطفه ، وكيانه النفسى على وجه العموم . فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل ، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع ؛ فقد ارتقى الإنسان حقا بكل ذلك . أما إذا كان يضيّق مشاعره إلى نطاق الأنانية المزدولة ، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة ؛ فقد انحطت البشرية رغم هذا البريق الذي يخطف الأبصار ...

من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام »

للمؤلف محمد قطب

مقترحات للدستور الإسلامي في الباكستان

للاستاذ أبي الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية في الباكستان

الفصل الأول

المادة ١

الحاكمية في الدولة لله وحده .

بيانها : لا تكون الحاكمية في الدولة لفرد أو أسرة أو طبقة أو جماعة بل ولا لجميع سكان الدولة . إن الحاكم هو الله وحده فلا قانون إلا ما يحكم به .

المادة ٢

الشريعة الإسلامية هي القانون الأساسي للدولة .

بيانها : إنما وصل القانون الإلهي إلى الناس بواسطة الرسالة المحمدية . فالذي تلقوه بهذه الوساطة شيثان : أولهما كتاب الله الذي بين الله فيه قانونه . والثاني شرح لهذا الكتاب وتفسير له قدمه الرسول بقوله وفعله وتقريره من حيث إنه نائب عن الله عز وجل وخليفته في هذه الدنيا . فمجموع هذين الأصلين هو ما يسمى بالشريعة الإسلامية ، وهي التي تكون مأخذاً ومرجعاً لقوانين الدولة .

الفصل الثاني

الخلافة

المادة ٣

تكون الدولة بمنزلة الخلافة تحت الحاكمية الإلهية ، وإنما تنحصر وظيفتها في أن تحقق مرضاة الله تعالى بالعمل في هذه الدنيا وفقاً لهدايته المنزلة ، وفي ضمن الحدود التي عينها الرب تعالى .

المادة ٤

الخلافة التي أسست على بنائها هذه الدولة ، خلافة اجتماعية يشترك فيها جميع أفراد الدولة الذين يعترفون بالمادتين الأولى والثانية ، ويسلمون بهما تسليماً .

المادة ٥

أفراد الدولة المتمتعون بحقوق الخلافة وملاحياتها يؤلفون لأدارة الدولة — بانتخابهم الحر العام — حكومة تشتمل على أمير ومجلس للشورى ، ويفوضونها جانباً من صلاحيات الخلافة التي يتمتعون بها . فهذه الحكومة تقوم بواجبات الخلافة في الدولة مادامت حائزة لثقة الجمهور .

الفصل الثالث

غاية الحكومة

المادة ٦

والحكومة تكون غايتها :

- (أ) أن تقيم العدالة الاجتماعية في البلاد .
 - (ب) أن تعم في البلاد جميع صور المكارم والحسنات ، وتحقق لحياة أهلها الطهر والجمال والخير ، وتستأصل الفواحش والنكر ، وتقضي على كل ما يخرّب الأرض ويفسد على الناس حياتهم .
 - (ج) أن تحافظ على حقوق أهل البلاد .
 - (د) أن تحافظ على حرية أهل البلاد ، وتحمى الدولة من هجمات الأعداء .
 - (هـ) أن تبذل الجهد المستطاع في الدعوة إلى الخير والتنفير من الشر في ما سواها من بلدان العالم .
- وكل ذلك وفقاً لمرضاة الحاكم الحقيقي — أى الله عز وجل — وأحكامه .

الفصل الرابع

سياسة الحكومة وخطتها العملية

المادة ٧

من المحتوم على الحكومة أن تختار لتحقيق الغاية المذكورة آنفا الوسائل المعروفة المباحة . وتكون سياستها مبنية على الصدق والعدالة والأمانة . وهى تؤثر الحق والأمانة والمناهج الإسلامية على الأغراض والمصالح فى كل ما يعرض لها من الصلات بين الراعى والرعية فى داخل البلاد ، أو بين أمة وأخرى فى خارجها .

الفصل الخامس

المبادئ العامة للحقوق الإنسانية

(وتلك حقوق تراعى بصفة مساوية فى داخل البلاد وخارجها ، وبين أهل البلاد وغير أهلها ، وبين المسلمين وغير المسلمين من أبناء البشر) .

المادة ٨

(أ) للنفس الإنسانية حرمتها لا تقتل إلا بالحق .
 (ب) كذلك للدم البشرى حرمة لا يهراق إلا بالحق .
 (ج) لا يجوز الاعتداء على النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والجرحى فى حال من الأحوال ، (إلا أن يحرم أحدهم نفسه هذه الجريمة ؛ بعمل حربى أو ما يشاكله من التجسس وغيره) .

(د) وكذلك عرض المرأة له حرمة ولا يجوز هتكه بحال .

(هـ) من حق الجائع أن يطعم ، والعارى أن يكسى ، والشارد أن يؤوى ، والجريح أن يداوى ، والمريض أن يواسى . وإن كان هذا الجائع أو العارى أو الشارد أو الجريح أو المريض من قوم عدو للدولة ؛ إذ لا يجوز فى داخل حدود الدولة أن يحرم أحد الحاجات الإنسانية اللازمة .

(و) لا يجوز أن يفرق بين عباد الله فى الحقوق الإنسانية الأساسية لأجل اللون أو الجنس أو اللغة أو الحرفة أو القومية أو الوطنية أو الدين .

المال بين الله والإنسان

قال الله :

يقول الاقتصاديون : إن الناس لا يخلقون الثروات ، وإنما يخلقها الله سبحانه وتعالى . وهذه القضية لا تحتاج من عامة الناس — فضلا عن خاصتهم — إلى كد ذهن أو إجهاد قريحة ؛ فهي واقعة منهم جميعا موقع التسليم بالبدهييات . وهذه الثروات إما معدنية ، أو حيوانية ، أو نباتية ، وقد جاءت الإشارة إليها كلها في القرآن الكريم معزوة إلى الله سبحانه لا إلى أحد غيره .

١ — ففي الإشارة إلى الثروة النباتية يقول عز شأنه : « أفرايتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » . « أفرايتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » . « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » .

٢ — وفي الإشارة إلى الثروة الحيوانية يقول سبحانه : « وإن لكم في الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » . « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » . « وأوحى إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » .

٣ — وتوجهت الإشارة إلى الثروة المعدنية بمثل قوله سبحانه : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس » . وإلى العيون المعدنية الدائبة في نحو قوله جل ثناؤه : « وأسلنا له عين القطر (١) » .

وأنت بهذا ترى الاقتصاديين لا يجاوزون في تقريراتهم ما سجله القرآن الكريم معزوا إلى الله سبحانه ؛ فخالق الثروة هو الله لا الإنسان ، ومالكها هو الله لا الإنسان ؛ فإذا جاء شخص ما يدعى لنفسه ملكية شيء ما فقد افترى على الله الكذب إلا إذا كان على سبيل المجاز والتساهل في التعبير .

ويقول الاقتصاديون كذلك : إن عمل الإنسان لا يتعلق بخلق الثروة ، وإنما يتعلق

باستهلاكها والانتفاع بها ؛ فإذا وجد الشيء صالحا للانتفاع انتفع به كما هو كالهواء والماء وبعض الثمار ، وإذا وجدته غير ملائم لمزاجه عالجه بما يجعله صالحا للانتفاع ؛ كطحن القمح ثم نخله ثم خبزه حين أصبح الإنسان يعاف تناوله حبا كما خلقه الله .

وإذا وجد الشيء غير ملائم لذوقه أدخل عليه من التعديلات الظاهرية الشكلية ما يجعله على الهيئة التي يريد ؛ فخذع الشجرة في الفطرة صالح لأن يكون مقعدا يجلس عليه الرجل الفطري ، ولكن الإنسان الحضري يذهب مع مطالب الترف ، فيطلب للكرسی مسنداً للظهر ، ومتكناً للجانبين ، فهل تراه يخلق هذا الكرسي ؟ أو هل تراه يخلق الخشب له ؟ إن كل عمله أنه يقطع الجذع أجزاء كثيرة ، ثم يدخل على كل جزء منها تعديلا ظاهريا يتناول الشكل فقط ، ثم يجمع كل قطعة إلى أختها حتى يتألف من مجموعها هذا الكرسي الذي يريد .

فعمل الإنسان على هذا محصور في دائرة الاستهلاك لا الإنتاج (١) فمن زعم أنه منتج فقد خالف الواقع ، وتحدى الحقائق . . ومن هنا ندرك خطأ الذين يقولون إن مطاحن الدقيق ومصانع الخشب والصلب هي دور إنتاج ، اللهم إلا إذا سموها على سبيل المجاز والتساهل في التعبير . فنحن في الحقيقة مستهلكون والله هو المنتج ، وقصة هذه الأرض في حياتها الاقتصادية الظاهرة تدور حول محور واحد : إن الله يخلق ... ونحن نستهلك .

فالمال مال الله — إذن — لا مال الإنسان .. والإنسان مخلوق لا عمل له في الإنتاج ، وكل عمله محصور في دائرة الاستهلاك ، أو تهية الأشياء للاستهلاك . . ولا مفر لنا من الوجهة المنطقية من التسليم بأن صاحب الحق الأول في تشريعات المال هو الله سبحانه .

١ — فهو الذي يشرع كيف نحوزه وكيف ننفقه .

٢ — وهو الذي يحدد معنى قيامنا فيه وحيازتنا له .

٣ — وهو الذي يبين ما فيه من الحقوق الواجبة وغيرها ؛ فإذا أراد الإنسان أن يشرع بعد ذلك فإن منطق الواقع يلزمه أن يتقيد بمشيئة الله في تشريعه .

ولكن الناس يفهمون الحقائق ويقررونها ، ثم لا يلتفتون إليها حين تشريعها أو حين تطبيقها . فهل ترى أظلم ممن يرى الحق ثم لا يتبعه ؟ وهل ترى أجهل من الذي يلهج بالمنطق ثم يحتنبه ؟ وهل ترى أخسر من أولئك الذين يجانبون الحق والمنطق وهم يعلمون ؟! ..

(١) لا يتقيد الباحث في ذلك بالاصطلاحات الفنية في علم الاقتصاد الحديث .

الغنى والفقر :

يقرر الاقتصاديون وغير الاقتصاديين أن العمل هو الوسيلة الطبيعية الأولى لامتلاك الثروة ؛ فمن عمل فله قيمة ما عمل ومن لا عمل له فلا شيء له . ولقد تبين فيما سبق أن العمل كله لله ، فهو الخالق الموجد للنشء المنعم ، وأن لا فضل للناس في شيء ، وأن لا عمل لهم قط في إنتاج الثروات ، وإنما كل عملهم في استهلاكها أو تهيتها للاستهلاك . ومعنى هذا بلغة الواقع الذى لا ينقض أن الغنى هو الله سبحانه وأن الناس من هذه الوجهة هم الفقراء جميعاً . والله سبحانه يقرر هذه الحقيقة فى يسر وسهولة بقوله : « يا أيها الناس أتمم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » ؛ وبهذا يلتقى ما يقرره الواقعيون لله بما تقرر له سبحانه فى علمه القديم .

واعلم يا أخى أننا حين نهتم بإبراز هذا المعنى لا نريد أن نتسلى بدرس دينى نسوقه للناس ، وإنما ننبه إلى النقطة الخطيرة التى ينبعث منها ويتشعب عنها كل ما عرفت الإنسانية من طغيان فى عصورها القديمة والحديثة ؛ وسيظهر لك معنى هذا القول من الوجهة الدينية والاجتماعية فيما سيأتى ؛ فلا بد من تحديد هذه النقطة الخطيرة والكشف عنها ، وإظهارها لأعين الناس : أعين قلوبهم وورء وسهم ؛ فلقد جئنا إلى هذه الأرض من الغيب المجهول حفاة ، عراة ، ضعافا ، لا نملك شيئاً ، ولا تقدر على شيء ، فهل المفقّر شيء غير هذا ؟

جئناها وأقمنا فيها ، ولم ندر لماذا جئناها أو لماذا أقمنا فيها وعمّا قليل سنرحل عنها . ونخلفها وراءنا ، ولا نأخذ منها شيئاً ؛ فهل هذه حال أهل الملك والغنى ؟ . . . ولا تظن يا أخى أن الله غنى لأنه يملك خزائن السموات والأرض ؛ حاشا وكلا ؛ إننا لم نذكر ماتقدم بأسلوب الاقتصاديين إلا لتفنع فقط من لا يريد أن يقتنع إلا بلغة الواقع أما الشأن الحقيقى فى غنى الله سبحانه فهو أنه قائم بذاته ، غير محتاج إلى شيء قط ، لا لأنه يملك هذا الملك الواسع . . . أما البشر فهم فقراء جميعاً ، لأنهم يحتاجون إلى كل شيء ، ولا يستطيع حياتهم الاستغناء عن شيء ؛ وهذا من الحقائق العليا التى يجب على علماء الاجتماع ألا يهملوها ؛ ففرق الخالق من المخلوق أنه سبحانه قائم بذاته ، غير محتاج إلى شيء ، ولا يتوقف وجوده على شيء ؛ أما المخلوق فلا قيام له بذاته ، ولا يستطيع الاستغناء عن الله وعمّا خلقه الله له ، وهذا هو معنى الفقر فى صميم حقيقته ؛ فمن ذهب من الناس يدعى لنفسه غير هذا ، فقد غير الحقائق ونازع الله ملكه وصفاته . وذلك هو الكفر المبين والله سبحانه يقول : « ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا

ولنذيقهم من عذاب غليظ» . . فأصل الكفر وبلاؤه أن يقول : هذا لى (ويدعى ملكية ما ليس له بملك) وينسى أنه كان بالأمس تراباً أو نقطة ليس لها من الأمر شيء ، ولقد ساق الله هذه الحقيقة في حوار رائع بين رجلين أحدهما غنى فتنه غناه عن نفسه وعن ربه : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » إلى آخر ما قال ؛ أما الآخر الذى لم يفتنه شيء عن حقيقة نفسه وربه فقال لصاحبه وهو يحاوره : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نقطة ثم سواك رجلاً ؟ » . . .

الطغيان وسببه :

ولا عجب أن يكون هذا القول من الكفر ؛ فهو يصور حالات نفسية من الزهو والخيلاء والفخر ، وهى حالات تنشأ في نفس صاحبها حين تنقطع صلته بالله ، ويغيب عنه أن الله هو الغنى ويده مفاتيح كل شيء ، وأن من عداه سبحانه محتاج إليه فيما تقوم به حياته ؛ فإن لهذه العقيدة — عقيدة غنى الله وفقر الناس واحتياجهم إليه — مشاعر إذا ظهرت في القلب أحس أنه دائماً مفتقر إلى فضل الله ، لا غنى له عن شيء منه فهو دائم الضراعة والدعاء والوقوف على باب سبحانه ، ولا يعقل أبداً في هذه الحالة أن يلتفت القلب إلى الفخر أو الزهو أو الاستعلاء على الناس ، بل لا يعقل أن يرى نفسه شيئاً مذكوراً فيقول أنا كذا . . « أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً » . ولقد ملك سليمان عليه السلام مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فما فتته الملك عن حقيقة صلته بالله ، وظل يدعو الله دعاء المفتقر إلى المزيد من فضله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . ما إذا انطفأ نور هذه العقيدة ، وخذت مشاعرها فى القلب ؛ زایلہ شعور الافتقار إلى الله ، وحل محله شعور الاستهانة وعدم المبالاة ، وانتهى به أمره إلى معانى الاستغناء عن ذلك الباب الواسع الكريم ؛ فإذا قال أنا غنى أو أنا قوى ، أو أنا خير من فلان ، أو اختال فى الناس ، أو طغى أو بغى فذلك من فساد العمل ، وفساد القلب حين ينطفئ نوره ، وتسكنه أبالسة الشر ، وقديماً قال فرعون المبرور : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » وحكاها الله عن عاد : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ » وإلى هذا المعنى الدقيق يشير قوله تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » : أى أن الإنسان إذا زایلہ الشعور بالافتقار إلى الله ، ورأى نفسه مستغنياً عنه سبحانه ؛ يذهب به الطغيان فى الأرض كل مذهب . ونؤكد مرة أخرى للناس أننا بهذا القول لا نقصد تقريرات دينية نظرية ، وإنما

نحاول أن نكشف لهم عن ينابيع الصلاح ، وجذور الفساد . . . نحاول أن نكشف لهم عن الفطرة الواضحة التي يتبين عندها الخير والشر كفلق الصبح ؛ حتى نبني نهضتنا الجديدة القوية على أسس عميقة ثابتة لا على نظريات فارغة طارئة ؛ ولعلنا بهذا البيان ندرك علة ما نحن فيه من شطط الأغنياء وتعاسة الفقراء ؛ فليست العلة أن فلانا من الناس ملك الثروات وحاز من الكنوز ما حاز ، وإنما العلة أن هذا الفلان عمى عن الله وزايله شعور الاضطراب الفطري ، ونسى قدر نفسه ولازمه شعور الاستغناء . . . ليست العلة الحيل لك كما يقول الشيوعيون ؛ وإنما العلة فساد الحالة النفسية التي تركب صاحب الملك . وليس العلاج مصادرة الأملاك ؛ وإنما العلاج قيام الأوضاع الربانية التي تحدد علاقة الإنسان بالله ، وعلاقة الإنسان بمال الله ! !

ونستطيع أن نقرر ونحن مطمئنون إلى صدق ما نقول أن ما نرى من مظاهر الاضطراب والبلبلة والقلق في محيط الاقتصاد والاجتماع ناشئ عن فقدان الأوضاع التي ترسي عقائد الأفراد على أساس سليم ، وترعى في مال الله ما أراده سبحانه من مصلحة روحية واقتصادية للفرد والجماعة .

استخوف برؤيتك

ولقد استرسل الرجل المؤمن في سورة الكهف يقرر لصاحبه هذه العلاقة ويبين أن مشيئة الله سبحانه هي التي توزع النعم على عباده ، ولا مشيئة فيها لغيره ، ولا قدرة لسواه . . . « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . فنحن على هذا الاعتبار أوعية نعم الله يستودع كلاً منا ما يشاء منها ويمسك عنه ما يشاء ، ولا اختيار لنا بإزاء مشيئته ولا علاقة لنا بنعمه أكثر من علاقة الوعاء بما يوضع فيه . هذا هو الوضع الصحيح الذي يبرز علاقتنا بنعم الله ويحددها ؛ كلها لله سبحانه . . . ونحن أوعية لها . والوعاء يحوز ولا يملك ؛ فإذا جاز للوعاء أن يدعى ملكية ما فيه . جاز لأحدنا أن يدعى ملكية ما عنده ! !

وبهذا ترى بُعد الشيوعيين عن الحق حين ينكرون جعلها لله ، ويعترضون على مشيئته في أن يستودع أفراد خلقه ما يشاء من نعمه : أي حين يريدون أن يصبوا ما في الآنية على الأرض لتملكه الدولة . . . وترى كذلك حق الرأسماليين حين يدعون ملك ما ليس لهم حق أو حين يسوغون للإناء أن يدعى ملك ما فيه ! !

وهذا الذي قررناه يفضي بنا إلى تساؤل لا بد منه : ما مركز الإنسان في ماله لله ؟ . . . أو بماذا نسمى قيامه فيما بيده من متاع هذه الأرض ؟ .

إن قصة الإنسان الاقتصادية تلخص في أنه مخلوق ضعيف ، جاء هذه الدنيا لا حول له ولا قوة ، ولا سبيل له إلى التصرف في شيء . فتلقته رعاية الله ، وأمدته سبحانه بالعقل والقوة وشق المالكات والمواهب ، فإذا الضعيف يقوى ، وإذا العقل ينشر سلطانه على ما حوله ، وإذا من لا حيلة له يسعى ويحتمل ، ويجمع في حياته ما يستطيع من العرض والمال !

هذه قصة هذا المخلوق فما مركزه فيما يحوزه من متاع هذه الأرض ؟ لقد تقرر أن كل عمل الإنسان في الثروة إنما هو للاستهلاك ، فهو عمل لا يقرر لصاحبه حق الملكية بحال من الأحوال ، إذا كان معنى الملكية ملكية الخالق لما خلق ، فبماذا نسمى وضع الإنسان فيما لديه من الثروة ؟

إن قصته الاقتصادية تفتح لنا السبيل إلى تكييف هذا الوضع ! لقد قذف من الغيب المجهول إلى هذه الأرض ضعيفاً لا يستطيع التصرف في شيء . . . فوهب له الله ما وهب فتغير شأنه وتحول إلى وضع إيجابي أتاح له أن يتناول ما حوله بكل أنواع التصرف ، ولو لا هذه المواهب لظل على شأنه لا يدري شيئاً ، ولا يتصرف في شيء . . . ومعنى هذا أن الله سبحانه وهب تلك المواهب ليؤدي بها في هذه الأرض عن طريق الإنسان ما يشاء من عمل اقتصادي ، وكان من كرامة الإنسان أن اختير لتلك المهمة وأعين عليها بتلك المواهب . . . أي أن الله أراد لهذا أن يستخلف الإنسان على ما خلق في هذه الأرض من حيوان ونبات وجماد ! وليس هناك من وضع يسيغه العقل وترتاح إليه الفطرة إلا هذا .

فعلاقة الإنسان بالمال أنه خليفة فيه لا أكثر من هذا ولا أقل ، فإذا سمي نفسه مالكاً أو سماء غيره كذلك فهي ملكية تتجاوز والمساهلة في التعبير ، أو هي الملكية التي تسير بصاحبها في الحدود المرسومة لكل من يندب للقيام في مال غيره وينوب عنه في إدارته !

ولاشك في أنك ترانا الآن نسير في محاذاة قول الله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . . . » ^(١) وهكذا يلتقي القول الفطري مع وحى الله سبحانه ، وينتهي البحث الحر إلى نفس ما قررت آيات الله في كتابه الحكيم .

ليس في الإسلام ملكية بالمعنى المعروف عند الرأسماليين ، وليس فيه شيوعية تهمل شأن الفرد ومواهبه وتسخره تسخير الدابة ؛ ولكن فيه « خلافة عن الله » ذات حدود مرسومة ، وسياسة مقررّة معلومة .

مع العارفين

الإمام المتحن : أحمد بن حنبل

أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ،
ما تقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد .

يحيى بن معين

قرأت سيرته منذ سنوات ، وتحدثت بها إلى بعض إخواني فيما كانوا يحضرون من
دروس الفجر ؛ فكنت كلما تمثلته في خيالي بدا لي كأنه علم أشم ، شاهق الأركان ،
تغيب في زرقة السماء ذراه المتسامية الرفيعة ، وتمتد أكنافه في عرض الأفق فلا يأتى
النظر على غايته . . . فإذا أردت القول عنه شق على أن أجد الطرف الذى أتناول
منه الحديث .

تلك واحدة ، والأخرى أنه حفر في قلبي ثغرة عميقة من الأسى الحى المتجدد ؛
حفرها بصره العجيب على الفقر والمرض والمحنة والسجن ، والورع في كل حال ؛ حتى
أيأس أعلام زمانه أن يجروا في مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون
الحشونة التى قدّرت له ، حتى قال يحيى بن معين — وهو من هو جلالة شأن ورفعة
منزلة — « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، ما تقوى
على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد » . . . بل حتى وفدت عليه قلوب الناس
مقبرة له بالإمامة في الورع والفقه والزهد والصبر ؛ قال إبراهيم بن مته السمرقندى
سألت عبد الله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل : إمام هو ؟ فقال : أى والله !
وكأفضل ما يكون الإمام ! ، إن أحمد أخذ بقلوب الناس ، إن أحمد صبر على الفقر
سبعين سنة !

حفر هذه الثغرة العميقة بصره الجلد العجيب ، فما ذكرته إلا أحسست معنيها
الحى المتجدد يجيش في أغوارها بوجدانه الرقيق الآسى . . . فيجتمع الإعجاب
بالطود الأشم الساجق الشامخ بالأسى الرقيق العميق المتجدد ؛ وتألف منها صورة
أحببتها أصدق الحب : صورة لا تطل على بعينين ، ولا أذنين ، ولا وجه جميل أو دميم ،
ولا جسم طويل أو قصير ؛ وإنما بمعنى ضخم : هو الحقيقة التى عاشت في هذه الأرض
حيناً باسم أحمد بن حنبل !

لقد كان شيخاً طويلاً ، مخضوباً ، أسمر شديد السمرة ، ولكن شيئاً من تلك الصفات لا أثر له في الصورة الوجدانية التي تبدو لي فيها حقيقة هذا الإمام الجليل رضي الله عنه .

ومع ذلك كله فهو سهل واضح ، لا تعقيد في شخصه ولا غموض ؛ شأنه في ذلك شأن كل حقيقة سافرة موطأة الأكناف . . . فإذا أردت أن تعرفه فأعرف عقلاً نقياً شخّص لي الإسلام القوى الواضح ، لا في أحكام وقواعد ونظريات ، وإنما في متون سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فبنت همه على تلك المتون متابعاً خطو نبيه عليه السلام في كل ما يعرض له من جليل الأمر أو دقيقه ، ومن حسيه أو معنويه ، لا يحيد عنها ولا يزيغ قيد شعرة . . . وانظر ذلك الذي يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحته هوة سحيقة مهلكة ، كيف يكون همه في ذلك الذي يسير عليه ، وجِدته في الاستمساك به ، وحذره أن يميل أو يهلك ؛ فذلك هو أحمد بن حنبل في صدق متابعته للظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ورع وجد ووقار حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه ؛ فكبر في نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته . قال خلف بن سالم : كنا في مجلس يزيد بن هرون — المحدث الكبير في واسط — فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحج أحمد بن حنبل — وكان معنا في المجلس — فقال يزيد : من المتنحج ؟ قلنا : أحمد بن حنبل ، فضرب يده على جبينه وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد ها هنا حتى لا أمزح ؟ !

تمثل ذلك كله ، وتمثل معه صبراً عجيباً لا يدركه الوهن ولا الترخص ، صبراً يمتاز بالجنة والقوة حتى ليخيّل إليك وأنت تقرأ له الحادثة من الحوادث أن صبره فيها هو كل ما تجمع في طاقته ، أو أنها استنفدت كل ما في طبعه من طاقة الصبر ، وأنتك إن تجد هذا الطبع إلا مقصراً متخلفاً عن ذلك الشأ وفيما تستقبل من بقية الحوادث . . فإذا انتقلت معه ، واستقبلت ، رأيت العجب ، وأدركتك الدهشة والحيرة مما يتلاحق أمامك من آيات هذا الطبع السخي الصبور .

ذلك كله هو أحمد بن حنبل : عقل نقي . . . وهمة منعقدة بآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وصبر لا يفيض له معين ، ولا تن له قوة ، ولا تبلى له جدة ! بدأ يحضر مجالس العلماء الكبار ويستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه خمس عشرة سنة أو ست عشرة يحليه طبعه الأبى ، وورعه العميق ، وصحته الوقور ، فمالبث أن ذاع صيته ، وصار المشار إليه من بين أقرانه حتى قال الهيثم بن جميل :

إن لكل زمان رجلاً يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفصيل بن عياض حجة على أهل زمانه ، وأظن هذا الفتى — إن عاش — سيكون حجة على أهل زمانه ؛ وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد كان يجمع الحديث جمع الإمام الفقيه ، لا جمع الإمام الراوية فحسب ؛ فكان يحيل عقله النقي فيما يحفظ ، ويمتاز بصدق ما يستخرج من أحكام الفقه وأجوبة المسائل . حضر قوم من المشتغلين يجمع الحديث مجلس الفقيه الكبير أبى عاصم الضحاك ، فقال لهم : ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم ، فقالوا فينا شاب فقيه سيجىء الساعة ، وكانوا يعنون أحمد بن حنبل . فلما حضر قال له أبو عاصم : تقدم .. فقال : أكره أن أتخطى الناس ^(١) ؛ فقال أبو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه أوسعوا له ، فأوسعوا فدخل حتى جلس بين يديه ، فألقى إليه مسألة فأجاب ، وألقى الثانية فأجاب ، وثالثة فأجاب ، ومسائل فأجاب ، فقال أبو عاصم : هذا من دواب البحر — يقصد أنه عجيبة من عجائب العلم .

وإنك لا تخطيء في هذا الفقه خصائص الإمام ابن حنبل ، ونهجه في ملازمة السنة والأخذ من آثار الصحابة رضى الله عنهم . قال إبراهيم بن هانئ : اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ، ثم قال : اطلب لي موضعاً حتى أتحوّل إليه . قلت : لا آمن عليك يا أبا عبد الله . قال : إذا فعلت أدتلك فائدة من العلم . فطلبت له موضعاً ؛ فلما خرج قال لي : اختفى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل ، وليس ينبغي أن تتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرخاء ، وتترك متابعته في الشدة .. ولقد صلى يوم محنته والدم يسيل من مواضع ضرب الشياطين ، فأنكر عليه بعضهم ذلك ولفته إليه ، فقال : لقد صلى عمر رضى الله عنه بالناس وهو مطعون ينزف منه الدم .

هذا هو مذهبه في العلم والفقه ، ولذا كان يرى من ضيعه العلم وسقوط منزلة المرء أن يسعى لتلقى أقوال الرجال في الفروع والمسائل ، وينصرف عن سوق السنة وهي قائمة رابحة . قال موسى بن حزام : كنت أختلف إلى أبى سليمان الجرجاني لأتلقى عنه كتب محمد بن الحسن في فقه أبى حنيفة ، فاستقبلني أحمد بن حنبل عند الجسر ، فقال لي : إلى أين ؟ قلت : إلى أبى سليمان . فقال : العجب منكم ، تركتم ثلاثة يبلغون بكم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقبلتم على ثلاثة يبلغون بكم أبا حنيفة !! قلت : كيف يا أبا عبد الله ؟

(١) ورد في سنة رسول الله كراهة تخطى رقاب الناس في المسجد وبجالس العلم .

قال : يزيد بن هارون يحدث الناس بواسط فيقول : حدثنا حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبك أبو سليمان يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبي حنيفة ! قال موسى بن حزام فوق في قلبي قوله ؛ فاكترت زورقا من ساعتي ، فأنحدرت إلى واسط فسمعت من يزيد بن هارون ، وقال عبد بن حميد : كنا في مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذ شاب إلا أنه المنظور إليه من بينهم ، فجاء رجل من بلخ فدنا من أبي عبد الله فسأله عن شيء فأجابه . فقلب الشيخ عليه الكلام ذاهبا مذهب المعاضلين في الفروع والآخذين بالرأى — قال وكان أحمد قليل الكلام — فلم يرد عليه إلا أنه أشار بيده اليمنى هكذا : أى تنح عني ، ففطن بعض أصحابه إلى أنه سأله عما لا يعنيه . ثم قال أحمد للرجل يا هذا ، إنما مجلسنا مجلس مذاكرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديث أصحابه ، فأما الذى تريد أنت فاقصد له مجلس ابن أبي دؤاد .

وفي سبيل تحصيل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم رحل من بغداد ماشياً إلى صنعاء ليسمع الحديث من عبد الرزاق يحدث اليمن الكبير ، فمكث بها قرابة عامين ، وعاد منها إلى مكة مجهداً بما لقي من خشونة العيش ومشقة الحرمان ، قال أحمد ابن إبراهيم الدورقي : لما قدم ابن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوبا ، وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، لقد شققت على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق ، فقال : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ! كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة .

بهذا الحب لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحرص على تلقاها ، والورع في تحرير متونها ، وشدة التثبت من حال رواها علا شأنه ، ورسخت قدمه ، وسار ذكره ؛ حتى قدمه العلماء ، وأقر له الأئمة بجلالة القدر ، فقال له الإمام الشافعي رضى الله عنه يوما : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ؛ فإذا كان خبر صحيح فأخبرني به حتى أتحوّل إليه . . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل فإذا وجدت الشافعي يقول في كتابه : حدثني الثقة ، أو أخبرني الثقة فهو أبي رحمه الله .

نَارُ عَلِيٍّ "تُونِس"

« إلى المغرب الجريح ... في كفايه الدامي

« وإلى فرنسا أم الحربة ... التي لم تولد بعد !!!

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

عَلَى الشَّرْقِ نَارُ !! وَفِي الشَّرْقِ عَارُ !!

وَلِلشَّرْقِ نَارُ !!

وَأَيْنَ النَّهَارُ ؟ فَتَضَحُّوْا الدِّيَارُ

وَتَحْيَا مِنْ الْمَوْتِ تِلْكَ الدِّمَارُ

وَتَنْزِعُ عَنْ سَاعِدَيْهَا الْإِسَارُ

وَعَنْ مُقْلَتَيْهَا الْأَسَى وَالصَّغَارُ

وَعَنْ جَانِبَيْهَا الرَّدَى وَالْدَّمَارُ

وَذُلًّا تَهْرِيمُ بِهِ فِي الْقِنَارُ

تُعْتَى لِمَنْ أَوْزَدُوهُمَا الْبَوَارُ

وَسَاقُوا مَوَاطِنَهَا لِلْخَسَارُ ..

بَقَايَا عبيدٍ بِأَسْلَاءٍ دَارُ

أَهَذَا هُوَ الشَّرُّ قُ؟ يَا لَلْمَخَارُ !!

عَلَى الشَّرْقِ نَارٌ وَفِي الشَّرْقِ عَارٌ
وَلِلشَّرْقِ نَارٌ !!

وَأَيْنَ اللَّجَامِ نَحِيلُ الظَّلَامِ
وَمِمَّ مَازَاهَا سَاهِرٌ لَا يَنَامُ !!
لَقَدْ زَحَفَتْ فِي صُدُورِ النَّيَامِ ..
وَحَلَّتْهُمْ مَرْتَعًا لِلْحِمَامِ
وَأَغْرَضَتْهُمْ شَهْوَةً لِلطَّغَامِ ..
وَذَلَّ الْأَبَاةُ ! وَهَانَ الْكِرَامُ !
وَمَسَّتْ سَنَا اللَّهُ كَفُّ اللُّثَامِ
فَدَاسَتْ بِقُرْآنِهِ فِي الرَّغَامِ ..
وَمَا زَالَ فِي الشَّرْقِ صَرَعَى مُدَامَ
يَصِيحُونَ : إِنَّا حُدَاةُ الْأَنَامِ !!

عَلَى الشَّرْقِ نَارٌ .. وَفِي الشَّرْقِ عَارٌ ..
وَلِلشَّرْقِ نَارٌ ..

وَأَيْنَ الرَّجَالِ ؟ وَكَيْفَ النَّزَانِ ؟
وَمَاذَا بِكَفَيْهِ غَيْرُ الْخِيَانِ ..
وَحَالُ مَنْ الْقَيْدِ تَبْكِي لِحَالِ !
وَمَضْلُوبَةُ فِي مَغِيبِ التَّلَالِ

مع الرِّيحِ صَرَخَاتُهَا لَا تَزَالُ
تَبُثُّ تَبَارِيحُهَا لِلْجِبَالِ
وَتَهْتِفُ بِالشَّرِّ قِ.. حَانَ النَّضَالُ
فُحْطِمَ عَلَى الْقَبْرِ سَدُّ الْمُحَالِ
وَقُمْ سَيِّدًا... أَوْ فَعُدْ لِلزَّوَالِ

على الشرقِ نَارُ.. وفي الشرقِ عَارُ.
وللشرقِ نَارُ !!

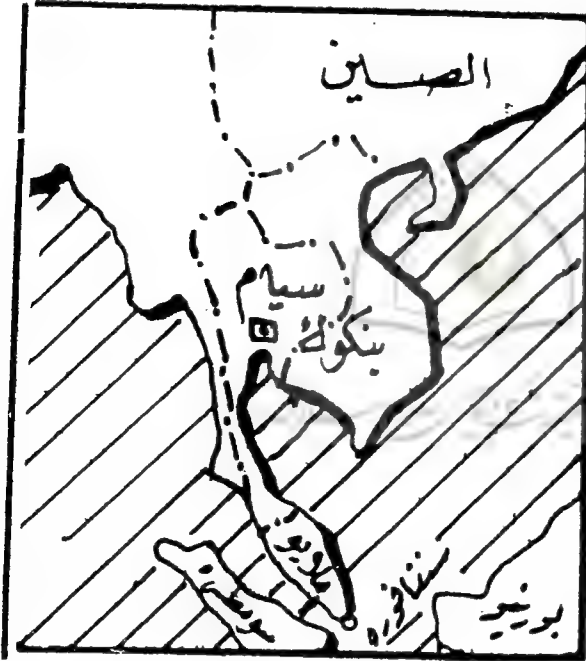
على الشرقِ نَارُ سَتُفْنِي الطَّغَاةَ
وَنَأْكُلُ مِنْ سَدِّ يَوْمًا خُطَاةَ
وَمَنْ قَيَّدُوهُ وَشَلُّوا ضُحَاهُ..
وفي الشرقِ عَارُ شَرَبْنَا لَطَاةَ
وَسِرْنَا مِنَ الْخِزْيِ فَوْقَ الْجِبَاةِ
عَبِيدًا نَصَلَّى لِسَوِّطِ الْعُتَاةِ
وَنُعَلِّي الْوُجُوهَ لِوَجْهِ الْإِلَهِ..
وللشرقِ نَارُ عَرَفْنَا مَدَاةَ
إِذَا أَدْنَتْ لِلْجِهَادِ الصَّلَاةَ
دَفَنَّا مَعَ الْغَاصِبِينَ الْحَيَاةَ !!

على الشرقِ نَارُ.. وفي الشرقِ عَارُ..
وللشرقِ نَارُ !!!

إخواننا في الملايا وسيام

الملايا :

● تقع شبه جزيرة الملايا في الجنوب الشرقي من آسيا ، وقد حمل نور الإسلام إليها قوافل المسلمين التجارية من العرب والهنود ، وانتشر فيها الإسلام حتى أصبحت كلمة « ملايوى » ترادف كلمة « مسلم » ومضت قوانين ولاياتها على أن الملايوى لا يكون إلا مسلماً . ومن الطريف أنه إذا أسلم صيني من سكان الملايا « مثلاً » قيل عنه إنه أصبح ملايوى . . . هكذا تغلغت روح الإسلام في هذا الجزء من العالم .



● يبلغ عدد سكان الملايا حوالى خمسة ملايين ، منهم ثلاثة ملايين مسلم والباقيون صينيون نزحوا إليها من قديم ، واشتغلوا بالتجارة ونبغوا فيها حتى ليسمون « يهود الشرق الأقصى » ولهم السلطان الأول على السوق الاقتصادية وخاصة في سنغافورة

● بدأ الانجليز ينشرون شباكهم في الملايا في أواخر القرن الثامن عشر عن طريق الشركات التجارية ، ثم اشتروا سنغافورة من سلطان جمهور

إحدى الولايات ، وعمروها حتى أصبحت ميناء هاماً وهي الآن مستعمرة . أما داخل الملايا فتقسمه تسع ولايات ومحيتان وهذه المقاطعات هي : سلانو ، ويراي ، وباهان ، وكيدا ، وقلنتين ، وترنجانو ، ويرلس . والمحيتان هما : ملاكا ، وبنين . ولكل مقاطعة سلطان ومجلس دولة يعينه السلطان باستشارة المندوب السامى الإنجليزى . وللمقاطعات مجلس اتحادى يعينه هذا المندوب ، والقوانين السائدة هي الإنجليزية فيما عدا الأحوال الشخصية والموارث والأوقاف ؛ فالعمول به فيها هو الشريعة الإسلامية . ولم يكن الإنجليز يسمحون في قضايا الموارث بالرجوع إلى حكم الشريعة قبل عشرين سنة .

● يبلغ سكان مستعمرة سنغافورة حوالى مليون منهم ثلاثمائة ألف مسلم لا يمثلهم

في المجلس التشريعى إلا ٣ من ١٦ عضواً .

● في سنغافورة وسائر مقاطعات الملايا جمعيات إسلامية كثيرة منها : جمعية الدعوة

الإسلامية ، والشبان المسلمين . ولكن نشاط هذه الجمعيات رغم ما يقوم به أعضاؤها — جزاهم الله خيراً — لا يزال غير كاف لتلبية حاجة مسلمي الملايا ، والاستفادة من استعدادهم الطيب وخاصة في المقاطعات الداخلية .

• هناك « رابطة عربية » تضم العرب المقيمين ، ورأسها الأستاذ الفاضل السيد إبراهيم بك السقاف ، وهو رئيس جمعية الدعوة الإسلامية كذلك — وتوجد مدارس عربية تحاول الاحتفاظ باللغة العربية في أبناء العرب الذين انخرطوا مع أهل الملايا وغلبتهم لغتهم ، كما تحاول نشرها في غير العرب . وأهم هذه المدارس مدرسة الخبير في سنغافورة .

في سيام :

يبلغ تعداد سكان سيام حوالي ١٧ مليوناً ، منهم مليونان من المسلمين ، والباقيون بوذيون . ودخل الإسلام سيام مع التجار المسلمين من العرب والهنود ، ولا يزال كثير من مسلمي سيام يعتزون بأصلهم العربي وإن كان لا يتكلم العربية إلا قليل منهم درسوها في سيام في مدارس عربية لا تزال موجودة بها ، أو أتيح لهم أن يدرسوا بالأزهر الشريف في مصر . ولا يكاد يعرف الداخل إلى سيام أن فيها مسلمين إلا إذا جدَّ في البحث عنهم وخاصة في (بنكوك) العاصمة التي يسكنها ٨٠٠.٠٠٠ منهم ١٠٠.٠٠٠ مسلم ؛ ولكنهم موزعون في أطرافها ، ولهم فيها ثمانون مسجداً ليس منها واحد يطل على شارع عام . ومن بين أعضاء البرلمان (٢٤٦) ليس للمسلمين إلا ٧ أعضاء ، ونسبتهم في الوظائف لا تعدو ٥ ٪ وفي أثناء الحرب الماضية حرمت الحكومة على المسلم أن يكون ضابطاً بأية رتبة في الجيش وليس لهم وزير واحد . ولكن حين تلقاهم تجدهم — بالرغم من ذلك — ينطوون على عاطفة إسلامية عالية تجعلهم صادق الشوق واللهفة إلى كل مسلم يفد عليهم من أي ناحية من ديار الإسلام .

وفي سيام جمعيات إسلامية مختلفة عرفنا منها جمعية الإصلاح ، والجمعية السلفية ، وأنجمين إسلام ، والأصدقاء المسلمون . والجمعية الإصلاح مسجد جميل (في Bangkok Noi) كلف إنشاؤه حوالي ١٥٠.٠٠٠ جنها . وللجمعية السلفية مدرسة في دارها لتدريس العلوم المختلفة . ولكن هذه الجمعيات على كثرتها لا تزال غير قادرة على جمع شمل مسلمي سيام ، وبعث الروح الإسلامية فيهم ، وإن كانت تتفق جميعها في أنهم مستعدون لذلك ؛ وخاصة في القرى في داخل سيام حيث يكونون الأغلبية في بعضها . على أنه مما يبشر بالخير أن هناك وعياً جديداً مباركاً بين نهر من الشباب الصالح نسأل الله أن يهيء لهم من أمرهم رشداً .

في أفق العالم الإسلامي

الجامعة الإسلامية :

كان للدعوة التي وجهها معالي السيد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان إلى الدول الإسلامية المختلفة وتلبية هذه لها اهتمام شديد في مختلف الأوساط ، وقد كنا نؤثر السكوت والتريث حتى يتبين وجه هذه المحاولة ومدادها ، ولكن السرعة التي بدت بها ، وطبيعة الظروف التي تحيط بها ، تجعلنا نبادر إلى إبداء رأينا ، وهو ليس رأياً في المشروع الجديد الذي لا نزال نجهل حقيقة ، ولكنه رأي في الفكرة العامة من حيث هي : « فكرة الجامعة الإسلامية » حلم المسلمين القديم ، حتى نواجه الأحداث وفي يدنا ميزان نزن به كل جديد ، ونعرف به مالنا وما علينا ، فنحن المسلمين ما أضربنا مثل انطلاق أكثرنا في كل أمور إلى غير وجهة واضحة ، ومثل تعطل ملكة التفكير فيها ، فأكثرنا لا يفكر ، لا يستعمل هذه الآلة التي ركبها الله في رأسه ليذكر النتائج من مقدماتها ، وليكون له في آراء الناس رأي ، ومع شئون الحياة علاقة واضحة : هدف واضح وتفكير واضح وإنتاج واضح . ولو أننا معاشر المسلمين حين خملت قلوبنا وعواطفنا ظلت عقولنا تعمل ، لأبقينا على (دنيا) نوعاً من الإبقاء ، فإن (الدنيا) التي نقضى فيها أعمارنا بأمر الله سنناً سنّها الله ، ونواميس يشترك في القدرة على إدراكها المسلم والكافر ، فإذا سبق الكافر إلى سنن الله في (دنياه) يتعرف عليها ويعمل بها فالقلبة له من غير شك ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . وقوافل الكفر التي اتصلت مؤامراتها على الإسلام في تاريخنا الحديث والقديم ، أهل دنيا يجيدون فيها ، ويعيشون في مائها المكنر بخياشيم منكورة تتجسس صيدها .

حدثني وزير دولة إسلامية كبيرة أوفدته دولته مندوباً لتفقد شئون رعاياها في المنطقة التي يحتلها اليهود من فلسطين ، فسافر إلى تل أبيب ، واجتمع بموسى شرتوك عدة مرات ليناقشه في مسائل تتعلق بمهمته ، وفي إحدى هذه المرات قال له شرتوك : « لا تظن أننا نطألك أو أننا لا نقدرك قدرك فنحن نعرفك تماماً ، ونعرف أنك عملت في مكان كذا ومكان كذا ... الخ » وأخذ يقص عليه نواحي هامة من تاريخ حياته ، وكان هذا الحديث بعد أيام من إعلان انتداب هذا الوزير إلى تل أبيب . وهكذا يعمل اليهود عن دراسة دقيقة لأوضاعنا ورجالنا . واليهود ليسوا إلا فصيلاً من جيش لجب دائب العمل ليلاً ونهاراً في معاربة الإسلام ؛ وإن كانوا أخبثه شراً وأخسه نفساً .

فإذا أعددتنا نحن المسلمين لمواجهة هذه الحرب المنظمة وهؤلاء الأعداء الأذكياء ؟ . لا يجوز أن نهلك متعللين بالمعاذير فإننا وإن كنا لا نملك الوسائل التي يملكها أعداؤنا الكثيرون إلا أننا — على الأقل — نملك رؤوسنا ونفوسنا ، ونملك أن نحرر هذه الرؤوس من الدخل ومركب النقص والاستهتار بنواميس الحياة ، وأن نحرر هذه النفوس من أسباب ذلك كله وآثاره وأهمه العيب وميوعة الإرادة والغفلة عن أمر الله الحق : فليس الإله الذي أمر المسلمون أن يعبدوه هو الإله — سبحانه ربنا — الذي تصوره الأهواء والشهوات ، ولكنه الإله الحي القاهر الذي جعل قوى الحياة أمانات ، وقال للناس في قرآنه : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » والذي يخاطبهم في هذا القرآن ويكرر الخطاب : أفلا يعقلون ؟ — أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ ...

هذا استطراد دعانا إليه الحديث عن فكرة الجامعة الإسلامية ، والرغبة في أن تؤسس جهودنا دائماً على أساس واضح ، وأن نعرف الفكرة من كل شئ . قبل الخوض فيه حتى نأخذ أو ندع ، ونتقدم أو نتأخر ونحن في كل ذلك على بينة .

لهذا فقد استرحنا كثيراً حين صرح السيد فاضل الجمالي في القاهرة بأن قيام اللجنة الاستشارية بين الحكومات الإسلامية ليس معناه أى تكتل إسلامي أو جامعة إسلامية ، استرحنا رغم شوقنا الشديد إلى أن نرى المسلمين مجتمعى الشمل ، وسبب هذه الراحة اشفاقنا على فكرة « الجامعة الإسلامية » كما يفهمها الغيورون على دين الله والعارفون بشريعتهم أن تتأثر بمحاولة قد تبلغ في الإخلاص المدى ، ولكنها لا تملك من الوسائل ولا من الظروف المحيطة ما يجعل في قدرتها تحقيق هذا الأمل الجميل . ويتلخص ذلك عندنا في أمور ثلاثة :

(الأول) : الجامعة الإسلامية : رابطة من نوع آخر غير الذى تعارفت عليه شعوب هذا

الزمان ، فهى ليست رابطة تأخذ رصيدها من حدود أرضية تضيق وتنسع ، ولا من وحدة دم يفور ويبرد ، ولا من حاجات بطن تجوع وتشبع ، ولا من أعجاد تاريخ يعيش به الأحياء على هياكل الموتى . . . ولكنها رابطة لا تكون إلا في واقع قائم يرتبط فيه أهل هذه الجامعة الإسلامية بالمثل الأعلى الثابت الذى حدده الإسلام ، يؤمنون به ويدعون إليه ولا يعتزون إلا به ، فهى : (جامعة إسلامية) لأن أهلها جمعهم (الإسلام) : إسلام عواطفهم لله رب العالمين ، وإسلام أمور حياتهم لأحكامه . وبغير ذلك لا تكون جامعة إسلامية ، ولكنها تكتل على عصبية جديدة لا يعرفها الإسلام . ونحن نحيل القارىء الكريم إلى ما كتبناه عن ذلك في عدد (المسلمون) الماضى تحت عنوان : (خطر رد الفعل) .

(والثانى) : التأثير الأجنبي : وهو التهمة التى تهم بها أكثر محاولات تجميع شمل المسلمين

اليوم وهى تهمة تحيك في أنفس كثيرين حين يرون أن خطر الشيوعية هو الذى يشغل الكتلة الغربية كل مشغله ، وحين يقال إن هذه الكتلة تريد استغلال الإسلام في محاربة الشيوعية . ومعنى ذلك أنها حركة لحسابها لا لحساب الإسلام والمسلمين . هؤلاء قد لا ينكرون وجوب الاستفادة من ظروف العالم السياسية ، ولكنهم يترددون كثيراً في الاطمئنان إلى أن واقع الدول الإسلامية المختلفة السياسى يمكن أن تتحقق معه هذه الاستفادة ، بل إن بعضهم ليذهب في تفسير تصريح السيد فاضل الجمالي : بأن الاجتماع لا يقصد به أى تكتل إسلامي ، إلى أن سببه الضعف القديم في إبداء رأى الإسلام .

ونحن بدورنا لا نستطيع أن نتحمل التبعة فنطمئئهم .

(والثالث) : العلاقة بين الحكومات (الإسلامية) المختلفة ودعاة الحركة الإسلامية فيها :

تجملنا نعتقد أن خطوة اجتماع هذه الحكومات كان يجب أن تسبقها خطوة أخرى وهى اقتناعها محلياً بصلاحية الإسلام للتطبيق ، وتمكين العاملين له من نشر دعوتهم واستجابتها لاقتراحاتهم في تطهير مختلف الأوضاع من كل ما لا يرضى الله ولا يتفق مع تعاليم الإسلام . . .

والبا كستان تستطيع في هذا أن تؤدي دوراً جليلاً حين تجعل أوضاعها الداخلية صورة صادقة للإسلام ، وتكون بذلك قدوة عملية لسواها من الحكومات .

وبعد . . . فنحن وإن كنا نرى فصل فكرة الجامعة الإسلامية في ذاتها عن هذه المحاولة وعن كل محاولة مثلها حتى نبقى على الفكرة واضحة في نفوس المسلمين إلى أن تتوفر أسبابها ، وحتى تكون هى الميزان الذى يواجهون به كل محاولة فيشجعونها ويوجهونها وجهة الخير . نحن وإن كنا نرى ذلك إلا أننا نرجو أن تكون في هذه المحاولة الجديدة ، وفي المؤتمرات الكثيرة من

وقت إلى آخر ، عوامل تهية الأسباب الطبيعية للجامعة الإسلامية كما ينشدها كل مؤمن . وأهم ما ينفع في هذا السبيل رفع الحواجز الكثيرة في نظام التأشيرات والجمارك بين الدول الإسلامية ، والتقارب الاقتصادي والثقافي فيما بينها والتعاون السياسي في قضاياها .

قضية وادي النيل :

أعجبنا الرسالة التي كتبها فضيله الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمون إلى دولة رئيس الوزراء ، ووجدنا فيها تلخيصاً طيباً لما تحتاجه قضية الوادي فرأينا أن نعيد نشرها في هذا العدد من (المسلمون) لحضرات قرائها في خارج مصر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . . وبعد :

فإن ما حملنا الله من أمانة الجهر بالحق والنصح للعالم يتقاضانا أن نصارح دولتكم بما يخالج نفوس الأمة المصرية من تعجل الفصل في قضيتها الكبرى وتحقيق أهدافها في الجلاء والوحدة ، وبما بات يساورها من الضيق بهذه الأشهر الستة التي انقضت منذ إلغاء المعاهدة دون أن تصيب البلاد ثمرة الكفاح الصادق الذي مهرته بدماء شبابها الأبرار الذين حملوا عبء الكفاح في سبيل الله والوطن : « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » .

والإخوان المسلمون يعتقدون أنه مامن وطني كريم تظله سماء الوادي — حاكماً أو محكوماً — إلا وهو يكن لبلاده الحب ويتمنى لها الخير والمجد . وهم أحسن بيني وطنهم ظناً من أن يتصوروا أن هناك خلافاً على القضية أو حيدة عن الحقوق الوطنية . ولكن ذلك كله لا يعصمنا — وقد طال الانتظار دون جدوى — من الإشفاق أن يكون الزمن في صالح المستعمر ، وأن يكون الإنجليز وحدهم الراجح من ثاقل الخطوات التي تتعرض فيها القضية الوطنية ، ومن الهزات التي تتناول مقاعد الحكم وتناق في روع المستعمر — ولو خطأ — أن المصريين في شغل بأنفسهم ومنازعاتهم الداخلية عن قضية الجلاء والوحدة .

من أجل ذلك يا صاحب الدولة رأينا أن نتقدم إلى دولتكم بالمشورة الصادقة في علاج الموقف الخارجي والداخلي مستمدة من إيماننا بالله وغیرتنا على الوطن وبراءتنا من الهوى واستقلالنا بالرأى « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .

يا صاحب الدولة :

أما الموقف الخارجي فن البداة بمكان أن الإنجليز لا يستجيبون لآمالنا الوطنية ولا يفكرون في الجلاء إلا بقدر ما يصيب أقدامهم من زلزلة واضطراب ، وما يتعرض له استقرارهم ومصالحهم لمادية والاستراتيجية من خلل وإفلاق ، فتقبلها منا يا صاحب الدولة نصيحة خالصة لم تتكل عن دائها لكل من استنصحننا بمن حملوا هذه الأمانة قبلك . إن الكفاح وحده هو سبيل الجلاء والوحدة . الكفاح الذي ينتظم الحاكم والمحكوم ، ويتلاقى تحت ألبته الكبير والصغير ، ويبدو فيه العزم والإصرار على تحقيق الأهداف ، وتؤخذ الأهبة لاستمراره وشموله بحشد الكفايات العلمية والاقتصادية والسياسية والحربية والأخلاقية فوق ذلك كله لتنظيم المقاطعة ودوام المناجزة بما يزلزل الأرض تحت أقدام الغاصبين ، ويجعل أيامهم في الوادي خسارة يفرون منها وهمزما لا يستطيعون الصبر عليه .

فإذا انشرح لذلك صدرك يا صاحب الدولة فخير البر عاجله والله ممك وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، والشعب بجانبك متحفز لأداء تكاليف الحربة حتى يدركها وإن غلت وانقأ بوعده الله الكريم « ولا تهنوا ولا تخزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .